كتب هزّت العالم

رأس المال
لِكارل ماركس

سيرة

فرانسيس وين

نقله إلى العربية
ثائر ديب

العبيكان
Obekan

رأس المال

لكارل ماركس - سيرة

كتب هزّت العالم

رأس المال لكارل ماركس

سيرة

تأليف

فرانسيس وين

نقله إلى العربية

ثائر ديب



Original Title:

Books That Shook The World

Marx's Das Kapital A Biography

By: FRANCIS WHEEN

ISBN 1 - 84354 - 400 - 8

Atlantic Books An imprint of Grove Atlantic Ltd. Ormond House, 26-27 Bowell Street London, wc1n 3JZ

ISBN 9960 - 54 - 337 - 4

الطبعة العربية الأولى **1428هـ - 2007م**

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 / 2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1428هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

وين، فرانسيس

رأس المال لكارل ماركس. / فرنسيس وين؛ ثائر ديب. - الرياض 1428هـ

160 ص؛ 14×21 سم

ردمك: 4 - 337 - 54 - 9960

1 - الماركسية - نظريات 2 - الاشتراكية ٣ - الاقتصاد - نظريات

أ. ديب، ثائر (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 335.401 1428 / 4425

ردمك: 4 - 337 - 54 - 9960 رقم الإيداع: 1428 / 4425

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595



المحتويات





مدخل:

التحفة المجهولة

في شهر شباط من العام 1867، قبل مدة وجيزة من تسليم مخطوطة المجلّد الأول من رأس المال إلى الناشر، ألحّ كارل ماركس على فريدريك إنجلز أن يقرأ قصة "أونوريه دو بلزاك" **التحفة المجهولة**، وقال له: إنّ هذه القصة هي ذاتها تحفة صغيرة "مفعمة بالسخرية المبهجة أشدّ البهجة".

لا نعلم إذا ما كان إنجلز قد أصاخ السمع إلى نصيحة ماركس، وإذا ما كان قد فعل، فلا بدّ أن يكون قد وقع على السخرية ولعلّه قد أدهشه أيضاً أنّ يكون صديقه القديم قد وجد في تلك القصّة أيّ قدْرٍ من البهجة. فقصّة **التحفة المجهولة** هي قصّة فرنهوفر، الرسّام العظيم الذي أمضى عشر سنوات وهو يعمل ويعمل على لوحةٍ أراد لها أن تُحْدِثَ ثورةً في الفنّ بتقديم "أكمَلَ تمثيل للواقع"، وحين يسمح أخيراً لزميليه الفنانين بوسين وبوربوس أن يريا اللوحة المنتهية ترعبهما رؤية عاصفةٍ من الأشكال والألوان العشوائية متراكمةً فوق بعضها بعضاً في اختلاطٍ وفوضى. "آه، لم تتوقّعا مثل

هذا الكمال"، يصرخ فرينهوفر، وقد أساء تأويل الدهشة التي فتحت أعينهما على اتساعها، غير أنّه يسمع بوسين هنا وهو يقول لبوربوس: إنَّ فرينهوفر لا بدّ أن يكتشف الحقيقة عاجلاً أو آجلاً، وهي أن اللوحة قد أُفْرِطَ في رسمها مرّات كثيرة حتى لمْ يَبْقَ فيها أيّ شيء.

"لاشيء في لوحتي!" صرخ فرينهوفر، وهو ينقل ناظريه بين الرسامين ولوحته.

"ماذا فعلت؟" قال بوربوس لبوسين بصوتٍ خافت.

أمسك العجوز (فرينهوفر) ذراع الشاب بقوة وقال له: "لا ترى شيئاً فيها، أيها المهرّج! أيها الوسخ! أيها الوغد! النصّاب! ما الذي جاء بك إلى هنا، إذاً؟". ثمّ التفت إلى الرسّام الأكبر سنّاً (بوربوس) قائلاً: "بوربوس، يا صديقي الطيب، أيمكن أن تهزأ بي أنت أيضاً؟ أجبني! إنني صديقك؛ قُلْ لي، هل أفْسَدْتُ لوحتي؟"

تردّد بوربوس، ولم يجرؤ على الكلام: لكن القلق البادي على وجه العجوز الشاحب كان يقطع نياط القلوب مما دفعه لأن يشير إلى اللوحة قائلاً: "انظر!"

حدّق فرينهوفر في لوحته للحظة ثمّ راح يترنّح.

"لا شيء! لا شيء! وقد عملتُ عشر سنوات!"

ووقع على الكرسي مجهشاً بالبكاء.

وبعد أن يُخْرِجَ الرجلين من مرسمه، يحرق فرينهوفر جميع لوحاته وينتحر. وبحسب ما يقول بول لافارغ، صهر ماركس، فإنّ قصة بلزاك "تركت أثراً عظيماً على ماركس لأنها كانت تصف مشاعره نوعاً ما هو أيضاً". فقد عمل ماركس على تحفته الخفيّة ذلك العمل الشاقّ الذي تواصل سنوات كثيرة، وكان ردّه المعتاد على من كانوا يطلبون منه -خلال مرحلة الحَمْل المديدة هذه- إلقاء نظرةٍ على العمل وهو في طور التنفيذ ردّاً مطابقاً لردّ فرينهوفر: "لا، لا! لا يزال عليّ أن أضع بعض اللمسات الأخيرة. البارحة، مساءً، خُيِّل إليّ أنني انتهيت منها... هذا الصباح، مع ضوء النهار، اكتشفت خطأي". ومنذ العام 1846، وكان الكتّاب قد تأخّر أصلاً، كتب ماركس إلى ناشره الألماني: "لن أنشره قبل أن أنقّحه مرّة أخرى، سواء من حيث المادة أم من حيث الأسلوب. ولا حاجة للقول إنَّ كاتباً يعمل على نحوٍ متواصل لا يستطيع، في نهاية ستّة أشهر، أن ينشر حرفياً ما كتبه قبل ستّة أشهر". وبعد اثنتي عشرة سنة، ولم يكن العمل قد قارب الاكتمال، راح يفسّر هذا التأخير قائلاً: "الأمر يسير ببطء شديد لأنّ المرء ما إن يشرع أخيراً في تنظيم الموضوعات التي كرّس لها سنوات من الدراسة حتى تأخذ هذه الموضوعات بالكشف عن أوجه جديدة تقتضي المزيد من التأمّل".

لقد ظلّ ماركس، بنزوعه الهوسيّ إلى الكمال، على سعيه الأبدي لأن يجلب إلى لوحته ألواناً جديدة. فدرس الرياضيات، وقرأ عن حركة الأجرام السماوية. وعلّم نفسه اللغة الروسية لكي يتمكّن من قراءة كتب تتناول نظام الأرض في ذلك البلد. وكما يقول فيرنهوفر، مرّة أخرى: 'واحسرتاه! كان يُخَيَّل إليَّ في لحظة أنّ لوحتي قد اكتملت: لكني كنتُ أحسب أنني لا بدّ أن أكون قد أخطأت في بعض التفاصيل. وأنّ بالي لن يرتاح قبل أن أجلو شكوكي. وقرّرتُ أن أسافر، وأزور تركيا، واليونان، وآسيا بحثاً عن موديلات، كيما أقارن لوحتي مع الطبيعة في أشكال المختلفة'.

ما الذي دفع ماركس لأن يتذكّر قصة بلزاك في اللحظة ذاتها التي كان يُعِدُّ لإزاحة النقاب عن عمله الأعظم ويتركه لتمحيص الجمهور؟ هل كان يخشى هو أيضاً أن يكون كلّ هذا الجهد الذي بذله عبثاً وبلا طائل، فيتكشّف 'تمثيله الكامل للواقع' عن أنه مستغلق وعسير على الأفهام؟ لا شكّ أنّ بعضاً من هذه الهواجس قد انتابته – فشخصية ماركس كانت خليطاً من الثقة العنيفة بالنفس والتشكّك المُبَرِّح فيها– وقد حاول أن يستبق النقد بِلَفْتِهِ الانتباه في المقدمة إلى أنه يفترض 'بالطبع، قارئاً يرغب في أن يتعلّم شيئاً جديداً، ويرغب تالياً في أن يفكّر هو نفسه'. غير أنّ ما ينبغي أن يستوقفنا بقوة بشأن تماهي ماركس مع مبدع التحفة المجهولة هو أنّ فرنهوفر فنّان، وليس عالماً في الاقتصاد السياسي.

أو فيلسوفاً، أو مؤرّخاً، أو مجادلاً. والمفارقة الأشد بهجة في **التحفة المجهولة**، كما لاحظ الكاتب الأميركي مارشال بيرمان، هي أنّ وصف بلزاك لتلك اللوحة هو وصفٌ كامل للرسم التجريدي في القرن العشرين، أمّا حقيقة أنّ بلزاك لم يكن بمقدوره أن يعلم ذلك فلا تعمل إلا على تعميق هذه الفكرة. المسألة هي أنّه حيث لا يرى عصرٌ ما سوى الفوضى والتفكك، يمكن لعصرٍ لاحقٍ أو أكثر حداثة أن يكتشف المعنى والجمال، كما يقول بيرمان. هكذا يمكن لانفتاح النهايات في أعمال ماركس اللاحقة أن يقيم اتصالاً مع عصرنا بطرائق لا تقوى عليها أعمال القرن التاسع عشر المنتهية: فكتاب **رأس المال** يتخطّى الأعمال الجيدة التي شهدها القرن الذي عاش فيه ماركس باتجاه حداثة قرننا. وماركس، مثل فرنهوفر، كان حداثياً بالمعنى الحرفيّ لهذه الكلمة. ووصفه الشهير للانخلاع في **البيان الشيوعي** - كلّ ما هو صلب يتحلّل ويتحوّل إلى أثير - يستبق ما رسمه ت. س. إليوت من رجال مجوفين ومدينة وهمية، وما قاله ييتس عن الأشياء التي تتداعى، وعن المركز الذي لا يقوى على الثبات. وحين كتب ماركس رأس المال، اندفع أبعد من النثر التقليدي باتجاه كولاّج راديكالي، جاور فيه بين أصوات ومقبوسات من الأسطورة والأدب، من تقارير مفتشي المصانع والحكايات الخرافية، على طريقة إزرا باوند في **كانتوس** أو ت. س. إليوت في **الأرض اليباب**. بل إنّ في رأس **المال** من التنافر ما نجده لدى شوينبرغ، ومن الكابوسية ما نجده لدى كافكا.

كان كارل ماركس ينظر إلى نفسه على أنّه فنّان مبدع، شاعر الديالكتيك. وقد كتب إلى إنجلز في تموز 1865 : "والآن، فيما يتعلّق بعملي، سوف أفضي إليك بالحقيقة الواضحة. مهما تكن العيوب القائمة في كتاباتي، فإنّ مزيتها تكمن في أنّها كلٌّ فنيٌّ". ولقد تطلّع إلى الشعراء والروائيين أكثر مما تطلّع إلى الفلاسفة أو المحللين السياسيين باحثاً لديهم عن تبصّرات في دوافع البشر ومصالحهم المادية؛ ففي رسالة مؤرّخة في كانون الأول 1868 نسخ مقطعاً من عملٍ آخر لبلزاك، هو **كاهن القرية**، وسأل إنجلز إنْ كان بمقدوره أن يؤكّد هذه الصورة من خلال معرفته بالاقتصاد العملي. (وبلزاك المحافظ الملكي قد لا يبدو ذلك البطل المعقول، لكن ماركس ظلّ على اعتقاده أنّ لدى الكتّاب العظماء تبصّرات بالواقع الاجتماعي تتعالى على تحيّزاتهم الشخصية). ولو أراد ماركس أن يكتب بحثاً تقليدياً لأمكنه أن يفعل، لكنّ طموحه كان أكثر جرأة. ويصف بيرمان مؤلّف **رأس المال** بأنّه "واحدٌ من العمالقة العظماء المُعَذّبين في القرن التاسع عشر إلى جانب بتهوفن، وغويا، وتولستوي، ودوستويفسكي، وإبسن، ونيتشه، وفان كوخ، ممن دفعوا بنا صوب الجنون، كما دفعوا أنفسهم، لكن عذابهم ولّد قَدْراً كبيراً من الرأسمال الروحي الذي لا نزال نعتاش عليه".

ولكن ما هو عدد الأشخاص الذين خَطَر لهم أن يُدرِجوا كارل ماركس في قائمة الكتّاب والفنانين العظماء؟ بل إنّ كثيراً من القرّاء

المحتملين في حقبتنا ما بعد الحداثية هذه قد يحسبون ما في **رأس المال** من سَرْدٍ متشظٍّ وتقطّع جذري ضرباً من الشواش والاستغلاق، والهدف الأساسي لكتابي هذا هو أن يقنع بعض هؤلاء القرّاء على الأقلّ بأن يعيدوا النظر: فكلّ من يريد الإحاطة ببتهوفن، أو غويا، أو تولستوي ينبغي أن يكون قادراً على أن "يتعلّم شيئاً جديداً" من قراءة رأس المال، خاصةً إنّ موضوعه لا يزال يتحكّم بحياتنا. وكما يتساءل مارشال بيرمان: كيف يمكن لـ **رأس المال** أن ينتهي ورأس المال لا يزال على قيد الحياة؟

من الملائم أنّ ماركس لم ينْهِ تحفته قطّ. فالمجلّد الأول هو المجلّد الوحيد الذي ظهر في حياته، أمّا المجلّدات التالية فقد جمعها آخرون بعد مماته، على أساس ملاحظات ومسوّدات وُجِدَت في مكتبه. وعمل ماركس هو عمل مفتوح النهاية – ومرنٌ، إذاً– شأن النظام الرأسمالي ذاته. ولقد كان ماركس حقّاً واحداً من العمالقة العظماء المُعَذّبين. وعلينا قبل أن نقارب تحفته أن نلتمس مصادر عذابه، وموارد إلهامه.



الفصل الأول

الحَملُ

على الرغم من أنّ رأس المال يُصنَّف في العادة على أنّه عملٌ في الاقتصاد، إلاّ أنّ كارل ماركس لم يلتفت إلى دراسة الاقتصاد السياسي إلاّ بعد سنوات كثيرة من الكَدْح في مجاليّ الفلسفة والأدب. وهذان الأساسان الفكريان هما ما شكّل دعامة المشروع. أمّا تجربة الاغتراب التي خاضها ماركس شخصياً فهي التي أضفت القوة على تحليل نظامٍ اقتصادي يغرّب البشر عن بعضهم بعضاً وعن العالم الذي يقطنونه. ذلك العالم الذي تستعبدهم فيه قوة رهيبة هي قوة رؤوس الأموال والسلع الفاقدة للحياة.

كان ماركس نفسه شخصاً خارجياً منذ لحظة ولادته. في 5 أيار 1818، صبياً يهودياً في مدينة ترير التي يغلب عليها الطابع الكاثوليكي ضمن دولةٍ بروسيةٍ كانت ديانتها الرسمية هي

البروتستانتية الإنجيلية. وعلى الرغم من أنّ أرض الراين كانت قد ضُمَّت إلى فرنسا خلال الحروب النابوليونية، إلاّ أنها عادت لتُدْمَج في بروسيا الإمبراطورية قبل ثلاث سنوات من ولادة ماركس، وبذلك بات اليهود في ترير خاضعين لمرسومٍ يحرّم عليهم ممارسة المهن الاختصاصية: فكان على والد كارل، هنريش ماركس، أن يتحوّل إلى اللوثرية كيما يُتاح له العمل كمحامٍ. ولا عجب أنّ كارل ماركس الشاب راح يطيل التفكّر في مسألة الاغتراب. وقد كتب في مقالةٍ مدرسية في السابعة عشرة من عمره: "لا يسعنا على الدوام أن نتّخذ المهنة التي نحسب أنها تناسبنا. فعلاقاتنا في المجتمع تبدأ بالتبلور إلى هذا الحدّ أو ذاك قبل أن نحتلّ ذلك الموقع الذي يتيح لنا أن نحدّد هذه العلاقات".

ولقد شجّع والد ماركس ابنه على أن يقرأ بنهم. وكانت سنوات الضمّ قد رسّخت لدى هنريش ميلاً إلى النكهات الفرنسية في السياسة، والدين، والحياة، والفن. وقد وصفته إحدى حفيداته بأنّه "فرنسي" حقيقي من القرن الثامن عشر يعرف عن ظهر قلب كلاً من فولتير وروسّو الخاصّين به". أمّا الناصح المخلص الآخر لماركس على الصعيد الفكري فكان صديق والده البارون لودفيغ فون ويستفالن، الموظّف الحكومي المثقف والليبرالي الذي عرّف ماركس على الشعر والموسيقى (وعلى ابنته جيني فون ويستفالن، زوجة ماركس المقبلة). ففي نزهاتهما الطويلة معاً كان البارون يتلو مقاطع

من هوميروس وشكسبير، لا يلبث رفيقه الشاب أن يحفظها عن ظهر قلب، ليستخدمها لاحقاً كتوابل أساسية في كتاباته. كما راح ماركس في حياته الراشدة يعيد أداء تلك النزهات السعيدة مع فون ويستفالن عبر إلقائه مشاهد من شكسبير ودانتي وغوته بينما يقود عائلته باتجاه هامستد هيث في نزهات أيام الأحد. وكما كتب البروفسور س. س. براور، فإنَّ جميع أفراد أسرة ماركس كانوا مضطرين لأن يعيشوا في "هبّات دائمة من الإلماع إلى الأدب الإنجليزي". فكان ثمة مقبوس يمكن إيراده لكلّ مناسبة: لدكّ معاقل خصم سياسي، أو بثّ الحياة في تجريدٍ فاقدٍ للحياة، كما يحصل حين يتكلم رأس المال ذاته بلسان شايلوك (في المجلد الأول من رأس المال) كيما يبرّر استغلال عمل الأطفال في المصانع.

احتجّ العمال ومفتّشو المصانع، لاعتبارات صحّية وأخلاقية، لكن رأس المال أجابهم:

فليقع وزر أفعالي على أمّ رأسي! القانون مبتغاي،

الجزاء والرهن تبع للعقد.

ولكي يثبت ماركس أنّ النقد هو ذلك المساواتيّ الراديكاليّ الذي يمحو جميع الفروق، فإنّه يورد خطبةً من **تيمون الأثيني** عن الذهب بوصفه "عاهرة مبذولة للجميع". تتلوها خطبة من **أنتيغون** لسوفوكليس ("المال! المال أسوأ ما اخترعه الإنسان!/ ذلك ما يخرّب

المدن، ويطرد البشر من بيوتهم. /ويفسد الأنفس النبيلة ويغويها/ إلى طريق العار والشنار...). أمّا الاقتصاديون بما لديهم من نماذج ومقولات فات زمانها فيشبّهم بدون كيخوته، الذي "دفع ثمن تصوّره الخاطئ أنّ الفروسية الجوّالة تتلاءم بالقدر ذاته مع جميع أشكال المجتمع الاقتصادية".

كانت مطامح ماركس الباكرة مطامح أدبية. وقد كتب -وهو لايزال طالباً يدرس القانون في جامعة برلين- ديواناً من الشعر، ومسرحية شعرية، بل ورواية، عنوانها "سكوربيون وفيليكس"، أنجزها على عجلٍ في نوبة مراقٍ عارضٍ وثَمَلٍ مفتون برواية لورنس ستيرن تريسترام شاندي. لكنه أقرّ بالهزيمة بعد هذه التجارب: "فجأةً، كأنما بلمسةٍ سحريةٍ - بل كانت اللمسة في البداية ضَرْبَةً ساحقةً- وقع بصري على عالم الشعر الحقيقي النائي مثل أرض الجنّ النائية، وتقوّضت إبداعاتي جميعاً وتلاشت... أُسْدِلَت ستارةٌ، وتمزّق قدس أقداسي إرباً، وكان لا بدّ من تنصيب آلهة جديدة". وعانى ماركس نوعاً من الانهيار، وأَمَرَهُ طبيبه بأن يلجأ إلى الريف في استراحةٍ طويلة، استسلم خلالها أخيراً لصوت غ. و. ف. هيغل المُغْوي، أستاذ الفلسفة في برلين الذي توفّي مؤخّراً، والذي كان إرثه موضع خلاف شديد بين التلاميذ من أقران ماركس والمحاضرين. ففي فتوّته كان هيغل نصيراً مثالياً للثورة الفرنسية، لكنه غدا في أواسط عمره مرتاحاً وليّن الجانب، وصار يرى أنّ

الشخص الناضج حقّاً ينبغي أن يدرك الضرورة الموضوعية ومعقولية العالم كما يجدها عليه. فعنده، أنّ كلّ ما هو واقعيّ عقلاني. وبما أنّ الدولة البروسية كانت واقعية دون شكّ، بمعنى أنها موجودة، فقد رأى أنصاره المحافظون أنها لا بدّ إذاً أن تكون عقلانيةً لا يرقى إليها اللوم. أما أولئك الذين كانوا يؤيدون أعماله الباكرة الهدّامة - الهيغليون الشباب- فكانوا يفضّلون الاستشهاد بالنصف الثاني من ذلك القول الشهير: كلّ ما هو عقلاني واقعي. وكان من الواضح أنّ الملكية المطلقة المدعومة بالرقباء والشرطة السرية ليست عقلانية وليست واقعية تالياً، مجرّد سراب لا يلبث أن يختفي ما إنْ يجرؤ أحدٌ ما على لمسه.

وفي الجامعة، اعتاد ماركس أن يأخذ مقتطفات من جميع الكتب التي يقرؤها، وهي عادة لازمته طوال حياته. وتبيّن قائمة قراءاته في هذه المرحلة مدى النضج المبكر الذي اتّسمت به استكشافاته الفكرية. فبينما كان يكتب بحثاً في فلسفة القانون أجرى دراسةً مفصّلةً لكتاب فينكلمان **تاريخ الفن**، وراح يعلّم نفسه الإنجليزية والإيطالية، وترجم كتاب تاسيتوس **جرمانيا** وكتاب أرسطو **الخطابة**، وقرأ فرانسيس بيكون وأمضى قدراً كبيراً من الوقت مع ريماروس، الذي انكببتُ باستمتاعٍ على كتابه حول الغرائز الفنية لدى الحيوانات. وهذا الأسلوب في البحث هو ذات الأسلوب الانتقائي كليّ المعرفة، الذي غالباً ما ينحرف عن مساره، والذي

أعطى **رأس المال** ما يتّسم به من اتساع المرجعية. ويبدو وصف ماركس لديمقريطس في أطروحته للدكتوراه، "الفارق بين فلسفة ديمقريطس وفلسفة أبيقور" "أشبه بلوحة ذاتية لافتة". يصفه شيشرون بأنّه متبحّر تماماً. فهو كفؤ في الفيزياء، والأخلاق، والرياضيات، في الفروع الموسوعية، وفي كلّ فنّ".

وبدا ماركس، لفترةٍ، غير واثق من كيفية استخدام كلّ ذلك التبحّر على أفضل وجه. فبعد حصوله على الدكتوراة فكّر في أن يصبح مُحاضِراً في الفلسفة. ثمّ قرّ قراره على أنّ القرب اليومي من الأساتذة أمْرٌ لا يُطاق. "من الذي يريد أن يتكلّم طوال الوقت مع سَفَلَة مثقفين، مع أناس لا يدرسون إلا لكي يجدوا مآزق جديدة في كلّ زاوية من زوايا الدنيا!". وعلاوةً على ذلك، كانت أفكار ماركس قد تحوّلت منذ مغادرته الجامعة من المثالية إلى المادية، من المجرّد إلى الفعليّ. وقد كتب في العام 1842: "لما كانت كلّ فلسفة حقّة هي الخلاصة الفكرية لعصرها، فلا بدّ أن يأتي عصر ترتبط فيه الفلسفة وتتفاعل مع عالم زمنها، ليس داخلياً وحسب من حيث محتواها، بل خارجياً أيضاً من حيث شكلها". في ربيع ذلك العام بدأ ماركس يكتب لصحيفة ليبرالية جديدة في كولون، هي Rheinische Zeitung (الجريدة الرينانية)؛ ولم تمضِ ستة أشهر حتى عُيِّن محرّراً فيها.

وتتّسم كتابة ماركس الصحفية بقتاليةٍ متهوّرة تفسّر قضاءه معظم حياته الراشدة في المنفى وفي عزلة سياسية. فأول مقالة

كتبها في الجريدة الرينانية كانت هجوماً جارحاً على ما اتّسم به الحكم البروسي المطلق من انعدامٍ للتسامح وما اتّسم به خصومه الليبراليون من بلاهةٍ وحُمق. ولم يكتفِ بما أَوْجَدَهُ من أعداء في الحكومة والمعارضة على حدٍّ سواء، فانقلب على رفاقه أيضاً. واتّهم الهيغليين الشباب بأنهم "أفظاظ وأوغاد". ولم يمضِ شهران على تولّيه مسؤولية تحرير الجريدة، حتى طلب حاكم الإقليم من وزير الرقابة في برلين أن يقاضيه على "نقده الوقح الصفيق". بل إن القيصر الروسي نيكولا شخصياً رجا ملك بروسيا أن يوقف الجريدة الرينانية التي أثارت سخطه بنقدها الساخر والعنيف لروسيا. وفي آذار من العام 1843 أُغْلِقَت الجريدة في الوقت المناسب: ففي الرابعة والعشرين من عمره، كان ماركس قد امتلك قلماً قادراً على ترويع رؤوس أوربا المتوَّجة وإثارة غيظها. وإذْ أدرك أنَّ لا مستقبل له في بروسيا، قَبِلَ دعوةً للانتقال إلى باريس كمحرِّرٍ مساعدٍ لمجلةٍ كان يصدرها بعض الألمان في المنفى، هي Deutsche-Franzosische Jahrbücher (الحوليات الألمانية-الفرنسية). ولم يضع ماركس سوى شرط واحد: "لقد خطبتُ لكي أتزوّج ولا أستطيع أن أغادر ألمانيا، ولا ينبغي أن أغادرها ولن أغادرها، إلاّ ومعي خطيبتي".

تزوج كارل ماركس من جيني فون ويستفالن في حزيران 1843. وفي بقية الصيف، بينما كانا ينتظران استدعاءهما إلى باريس،

تمتّع وعروسه الجديدة بشهر عسلٍ ممتدّ في منتجع كروزناخ للمياه المعدنية. وحين لم يكن يتمشّى على ضفة النهر كان يغلق على نفسه في غرفة عمل، يقرأ ويكتب على نحوٍ كثيف ومحموم. ولطالما راق لماركس أن يدوّن أفكاره على الورق، وثمّة صفحة باقية من الملاحظات التي دوّنها في كروزناخ تبيّن كيف كانت تجري هذه العملية:

> **ملحوظة. في ظلّ لويس الثامن عشر، الدستور نعمة من الملك (شرعة مفروضة من الملك)؛ وفي ظلّ لوي فيليب، الملك نعمة من الدستور (ملكية مفروضة). ويمكن أن نلاحظ عموماً أنّ تحوّل المُسنَد إليه إلى مُسنَد، وتحوّل المُسنَد إلى مُسنَد إليه، واستبدال المحدِّد بالمحدَّد هو على الدوام الثورة الأقرب... الملك يصنع القانون (الملكية القديمة)، القانون يصنع الملك (الملكية الجديدة).**

هذا القَلْب النحوي البسيط كان يكشف أيضاً عن نقيصةٍ في الفلسفة الألمانية. فقد زعم هيغل أنّ "فكرة الدولة" هي الفاعل، والمجتمع هو المفعول لهذا الفاعل. في حين يظهر التاريخ أنّ العكس هو الصحيح. يكفي إذاً أن نقلب هيغل رأساً على عقب لكي تُحَلّ المشكلة: لا يصنع الدّينُ الإنسان، الإنسانُ يصنعُ الدِّينَ؛ لا يُوجِد الدستورُ الشعبَ، بل الشعبُ يُوجِد الدستور. ومع أنّ ماركس أخذ

هذه الفكرة عن لودفيغ فيورباخ، الذي رأى في كتاب له أنّ "الفكر ينشأ من الكينونة، ولا تنشأ الكينونة من الفكر"، إلاّ أنه وسّع منطقها من الفلسفة المجرّدة إلى العالم المادي. فكما كتب في **أطروحات حول فيورباخ**، التي نُشِرَت عام 1845: "لقد اكتفى الفلاسفة **بتفسير** العالم، بشتّى الطرق: المهم هو **تغييره**". وهذه هي الأطروحة الأساسية في **رأس المال**، مع أنها الآن لا تزال جنيناً في الرحم. فمهما تكن الانتصارات الاقتصادية الجليّة التي حقّقتها الرأسمالية مجيدةً وعظيمةً، إلاّ أنّ الرأسمالية تبقى كارثةً لأنّها تحوّل البشر إلى سِلَعٍ، تمكن مبادلتها بسواها من السلع. وإلى أن يتمكّن البشر من تحقيق أنفسهم بوصفهم ذوات التاريخ وليس موضوعاته، لا يمكن أن يكون ثمّة مفرّ من هذا الطغيان.

في خريف العام 1843، وصل إلى باريس الثالوث المشرف على **الحوليات الألمانية -الفرنسية** - كارل ماركس، والصحفي أرنولد روغه، والشاعر جورج هيرويغ - وأنشأوا "تعاونيةً اشتراكيةً" أو كومونة في رو فانو، مستلهمين الأفكار اليوتوبية التي عرضها الاشتراكي الفرنسي شارل فورييه. لكن تجربة العيش المشترك كانت قصيرة الأجل، وكذلك تجربة المجلة ذاتها: فلم يصدر منها سوى عدد واحد حتى دبَّ الخلاف بين المحرّرين وتفرّقوا. وتلقّى ماركس بعدئذٍ عرضاً للكتابة في Vorwarts (إلى الأمام)، وهي صحيفة شيوعية يصدرها منفيون ألمان مرتين في الأسبوع، وقد

عبّر فيها ماركس لأول مرة عن قناعته بأنّ الوعي الطبقي هو سماد الثورة. كما كتب ماركس في تلك الصحيفة: "إنَّ البروليتاريا الألمانية هي منظّر البروليتاريا الأوروبية، كما أنّ البروليتاريا الإنجليزية هي اقتصاديّها، والبروليتاريا الفرنسية سياسيُّها"، وكان بذلك يستبق تقويم إنجلز للماركسية ذاتها بأنها مركّب هجين يشتمل على خطوط النسب الثلاثة هذه. وكان قد سبق لماركس أن تضلّع من الفلسفة الألمانية والسياسة الفرنسية، فانكبّ الآن على تثقيف نفسه بالاقتصاد الإنجليزي، شاقّاً طريقه على نحوٍ منهجي عبر أعمال آدم سميث، وديفيد ريكاردو، وجيمس مِلْ، مُخَرْبِشاً تعليقاته المتدفّقة كلما مضى قُدُماً. وكانت هذه الملاحظات، التي اشتُهِرَت باسم مخطوطات باريس، نوعاً من المسوّدة الباكرة الخام لما سيغدو في النهاية **رأس المال**.

تبدأ المخطوطة الأولى بهذا التأكيد المباشر: "تتحدّد الأجور من خلال الصراع الضاري بين الرأسمالي والعامل. والرأسمالي يربح حتماً. فالرأسمالي يمكنه أن يعيش من دون العامل أطول مما يمكن للعامل أن يعيش من دونه". وإذا لم يكن رأس المال سوى ثمار عمل العامل المتراكمة، فإنّ رساميل بلدٍ ما ومداخيله لا تتنامى إلاّ حين "يُؤخَذ من العامل المزيد والمزيد من منتجاته. وحين يواجهه عملهُ على نحوٍ متزايدٍ كملكية غريبةٍ، وتتركّز وسائل وجوده ونشاطه على نحوٍ متزايدٍ في يديّ الرأسمالي". ومصير العامل، حتى في أفضل

الشروط الاقتصادية، هو حتماً "المشقّة والموت الباكر، واختزاله إلى آلة، وعبوديّته لرأس المال". أمّا عمله فيغدو كينونةً خارجية "توجد خارجه، منفصلةً وغريبة عنه، وتأخذ بمواجهته كقوة مستقلة؛ ذلك أنّ الحياة التي وهبها للموضوع تواجهه كقوة معادية وغريبة". ويستمدّ ماركس هذه الصورة من واحدٍ من أحبّ الكتب إليه، وهو **فرانكنشتين**، حكاية المسخ الذي ينقلب على خالقه. ومع أنّ بعض الباحثين يرون أنّ هنالك "قطيعة جذرية" بين فكر ماركس الشاب وماركس الناضج، إلاّ أنّ كلاً من التحليل وأسلوب التعبير الغوليّ الذي يتّخذه هذا التحليل هما من عَمَل الرجل ذاته الذي رأى في رأس المال، بعد أكثر من عشرين سنة، أنّ الوسائل التي ترفع الرأسماليةُ الإنتاجيةَ من خلالها "تشوّه الإنسان وتحوّله إلى كِسْرَة إنسان، وتنحطّ به إلى مستوى آلةٍ، وتدمّر المحتوى الفعليّ لعمله بتحويله إلى تعذيب؛ وتستلب منه الطاقات الفكرية لعملية العمل... وتحوّل عمره إلى زمن من العمل، وتسحق زوجته وطفله بقوة رأس المال الماحقة".

وفي آب 1844، بينما كانت جيني ماركس تزور أمّها في ترير، جاء فريدريك إنجلز البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً ليعرّج على كارل في شقّته الباريسية. وكان قد سبق لهما أن التقيا مرّة على نحوٍ سريع، في مكتب **الجريدة الرينانية**، كما أُعجِبَ ماركس مؤخّراً أيّما إعجاب بمقالة إنجلز "نقد الاقتصاد السياسي" التي

قدّمها إلى **الحوليات الألمانية-الفرنسية**. ويمكن أن نرى سبب ذلك: فعلى الرغم من أنّه بات مقتنعاً الآن بأنّ القوى الاجتماعية والاقتصادية هي التي تدفع عجلة التاريخ، إلاّ أنّه لم يكن لديه أيّ معرفة مباشرة بالرأسمالية في الممارسة. وكان إنجلز مؤهّلاً لأن ينوّره على هذا الصعيد. فهو ابنُ ووريثُ ألمانيٍّ يعمل في صناعة القطن ويملك مصالح في مانشستر: قلب **الثورة الصناعية** ومسقط رأس **الرابطة المناهضة لقانون الحبوب**. مدينةٌ تعجُّ بالشارتيين، والأوينيين، والمحرّضين الاشتراكيين من كلّ صنف. وكان إنجلز قد انتقل إلى لانكشاير في خريف العام 1842. في الظاهر لكي يتمرّس في أعمال الأسرة وفي الحقيقة لأنّه كان يريد أن يرصد العواقب الإنسانية التي ترتّبت على الرأسمالية الفيكتورية. وفي النهار كان ذلك المدير الشاب المجتهد في **بورصة القطن**: وبعد ساعات كان يبدّل المواقع. فيمضي مستكشفاً شوارع البروليتاريا وأحياءها المكتظّة لكي يجمع مادة رائعته الباكرة. **حالُ الطبقة العامة في إنجلترا** (1845).

ومع أنّ ماركس وإنجلز أمضيا معاً عشرة أيام في باريس، فإنّ الرواية الوحيدة عن حوارهما الملحمي لا تَرِدُ إلا في جملة واحدة كتبها إنجلز بعد أكثر من أربعين عاماً: "حين زرتُ ماركس في باريس صيف العام 1844، بات اتّفاقنا الكامل في جميع الميادين النظرية واضحاً وعملنا المشترك يعود في التاريخ إلى تلك الفترة".

ولقد تمّمَ كلٌّ منهما الآخر على النحو الأكمل: ماركس بما لديه من ثراء المعرفة، وإنجلز بما لديه من معرفةٍ بالثروة. وكان ماركس يكتب ببطء ومشقّة، مع حذوفات وتنقيحات بقلم الحبر لا يحصرها العدّ، أمّا مخطوطات إنجلز فكانت مرتّبة، ومنظّمة، وأنيقة. ولقد عاش ماركس معظم حياته في حالٍ من الفوضى والفقر المدّقع؛ في حين حظيَ إنجلز بوظيفةٍ بدوامٍ كامل في الوقت الذي كتب أيضاً عدداً هائلاً من الكتب، والرسائل، والمقالات الصحفية. وظلّ يجد الوقت للتمتّع بلذائذ الحياة البرجوازية الراقية، حيث الجياد في إسطبلاته والكثير من الشراب في أقبيته. غير أنّ إنجلز، على الرغم من امتيازاته الواضحة، أدرك منذ البداية أنه لن يكون قطّ ذلك الشريك المسيطر، وقبِلَ، دون تذمّر أو غيرة، أن تكون مهمته تقديم العون الفكري والمادي الذي جعل عمل ماركس ممكناً. وقد كتب: "لا يسعني أن أفهم كيف يمكن لأحد أن يحسد العبقرية؛ فهي شيء بالغ الخصوصية لدرجة أننا نعلم منذ البداية -نحن الذين لا نمتلكها- أنّ من المتعذّر إحرازها؛ أمّا من يحسد شيئاً كهذا فلا بدّ أن يكون ضيّق التفكير إلى حدٍّ مخيف".

لم يكن لديهما أيّ أسرار، أو محظورات، يخفيها أحدهما عن الآخر؛ ومراسلاتهما خليط لاذع من التاريخ والثرثرة، من الاقتصاد المُلْغَز والنكات الصبيانية. كما عمل إنجلز أيضاً كنوعٍ من الأمّ البديلة بالنسبة لماركس: يرسل إليه مصروف جيبه، ويقلق على

صحّته ولا يني يحذّره لئلاّ يهمل دراساته. وفي أوّل رسالة باقية بينهما، تعود إلى تشرين الأول 1844، يلحّ إنجلز على ماركس لكي يحوّل ملاحظاته السياسية والاقتصادية إلى كتاب دون إبطاء: "فلتُعْنَ بأمر إخراج المادة التي جَمَعْتَها إلى العالم فوراً. لعلّ هذا الوقت هو الوقت المناسب قبل فوات الأوان!" وبعد أشهرٍ ثلاثة زاد نفاد صبره: "حاول أن تنهي كتابك في الاقتصاد السياسي، حتى لو كان فيه الكثير مما لا ترضى عنه أنت نفسك، فذلك ليس مهمّاً في الحقيقة: فالعقول يانعة وعلينا أن نضرب الحديد وهو حامٍ... حاولْ إذاً أن تنهيه قبل نيسان، افعل كما أفعل، حدّد لنفسك موعداً واحرص أن يذهب إلى المطبعة بسرعة". ويا لتلك المهمة اليائسة: فسوف يمرّ أكثر من عقدين قبل أن يُسَلَّم المجلّد الأول من **رأس المال** إلى المطبعة أخيراً.

وليس إنجلز نفسه بالبريء هنا كلّ البراءة. فما إنْ التقى ماركس في باريس حتى اقترح عليه أن يتعاونا في وضع كرّاس صغير - من أربعين صفحة كحدٍّ أقصى- ينتقدان فيه الهيغليين الشباب الأشدّ هياجاً. وإذْ أنهى إنجلز في بضعة أيام ذلك الجزء الخاص به والذي يقع في عشرين صفحة، "لم يدهشه" أن يعلم بعد عدّة شهور أنّ الكرّاس قد انتفخ حتى بات في 300 صفحة. فماركس كان كاتباً من النوع الذي لا يمكنه أن يقاوم ما يلهيه ويصرف اهتمامه، فيفضّل الرضا المباشر الذي توفّره الكرّاسات

والمقالات على الكَدْح الصامت المغمور الذي كانت تقتضيه رائحته، التي حملت آنئذٍ عنواناً مؤقّتاً هو **نقد الاقتصاد والسياسة**. وعلى الرغم من وعده بأن يسلّم الناشر الألماني كارل لِسكه المخطوطة الاقتصادية في صيف العام 1845، إلاّ أنّه وضعها جانباً دون أن يكتب أيّ شيء سوى جدول محتوياتها. وقد فسّر ذلك للِسكه، قائلاً: "بدا لي من المهمّ كثيراً أن أستبق تطوّري **الإيجابي** بقطعةٍ جدالية ضد الفلسفة الألمانية والاشتراكية الألمانية حتى وقتنا الراهن. فهذا ضروري لتهيئة الجمهور لوجهة النظر التي أتّخذها في **اقتصادي**. والتي تتعارض تماماً مع المعارف الألمانية ماضياً وحاضراً... إذا كان ثمّة حاجة، يمكنني أن أُخرج عدداً كبيراً من الرسائل التي وصلتني من ألمانيا وفرنسا كبرهان على أنّ الجمهور ينتظر هذا العمل على أحرّ من الجمر". قصةٌ قابلةٌ للتصديق: فالكتاب المعنيّ، **الإيديولوجيا الألمانية**، لم يجد ناشراً قبل العام 1932. وقد كتب ماركس: "لقد تركنا المخطوطة بكامل إرادتنا لنقد الفئران القارض بعد أن حقّقنا غَرضَنا الأساسي، وهو إيضاح الأمور لأنفسنا".

بيد أنّه ظلّ عاجزاً أو راغباً عن إيلاء العمل الاقتصادي اهتمامه الكامل. فقد شهدت السنوات القليلة التالية كثيراً من الانقطاعات الجدالية" **بؤس الفلسفة**، وهو خطبة لاذعة في 100 صفحة يقرّع فيها بيير جوزيف برودون؛ **عظماء المنفى**، وهو أهجية

مطنبة لـ "أبرز حمير الشتات الاشتراكي و أوغاده الديمقراطيين": **التاريخ الدبلوماسي السري للقرن الثامن عشر**، وهو خطبة عنيفة وطويلة ضدّ روسيا؛ **قصة حياة اللورد بالمرستون**، حيث يحاول أن يثبت أنّ وزير الخارجية البريطاني كان عميلاً للقيصر الروسي؛ **وهر فوغت**، وهو هجوم كاسح على أستاذ للعلوم الطبيعية في جامعة بيرن، كان قد جلب على نفسه حنق ماركس إذ وصفه بالدجّال والطفيليّ. "واحدة بواحدة، والانتقامات تجعل العالم يدور"، هكذا همهم لنفسه جذلاً وهو يبدّد أفضل جزء من السنة على عدائه مع فوغت.

كما أعاقت التقدّم مزيداً من الإعاقة تلك الاضطرابات الخاصة التي لا تنقطع. ففي كانون الثاني 1845 احتجّ مبعوث بروسيا في باريس أمام الملك لوي فيليب على مقالةٍ في "**إلى الأمام**" يسخر فيها ماركس من الملك فريدريش ولهلم الرابع. وقام وزير الداخلية الفرنسي بإغلاق المجلّة في الحال وأمر بطرد كاتب المقالة من فرنسا. وكان الملك الوحيد المستعدّ لاستقباله في كلّ البرّ الأوروبي هو الملك ليوبولد الأول، ملك بلجيكا، ولم يكن ذلك إلا بعد أن تلقّى تعهّداً مكتوباً بأنّ ماركس لن ينشر "أيّ عمل عن السياسة الراهنة". ولأنّ ماركس اعتبر أنّ هذا التعهّد لا يمنعه من **ممارسة** السياسة، فقد دعا إنجلز إلى الالتحاق به في بروكسل، حيث أسّسا **لجنة المراسلات الشيوعية** بغية الحفاظ على "تبادلٍ متواصلٍ

للرسائل" مع الجماعات الاشتراكية في أوروبا الغربية. وفي العام 1847 حوّلت هذه اللجنة نفسها إلى فرع من **عصبة الشيوعيين** المُشَكَّلة حديثاً في لندن، والتي دعت ماركس إلى صياغة إعلان مبادئها. وما قدّمه ماركس لهذه العصبة كان **بيان الحزب الشيوعي**، الذي قد يكون أوسع الكرّاسات قراءةً وأشدّها أثراً على مرّ التاريخ.

حين كتب ماركس البيان، في الأسابيع الأولى من عام 1848، كان يعتقد أنّ الرأسمالية البرجوازية قد أدّت غَرَضَها وسرعان ما ستُدَفَن تحت ركام تناقضاتها. فالصناعة الحديثة - بجرّها إلى المعامل والمصانع أولئك العمال الذين كانوا منعزلين - خلقت الشروط التي يمكن فيها للبروليتاريا أن تشكّل معاً تلك القوة التي لا تُقهَر. "ما تنتجه البرجوازية، إذاً، وقبل كلّ شيء، هو حفّارو قبرها". غير أنّ ماركس - الذي كان يحسب أنّه يلقي خطبةً جنائزيةً - كان بمقدوره أن يكون كريماً مع خصمه المهزوم. وقد وصف أحد النقّاد البيان بأنه "احتفاء غنائي بأعمال البرجوازية"، ومن يقرأ هذا البيان لأول مرّة غالباً ما يُدهَش للمديح الذي يكيله ماركس لعدوّه دون حساب:

> **لقد لعبت البرجوازية، تاريخياً، دوراً ثورياً بالغاً. فحيثما كانت للبرجوازية اليد العليا، وضعت حداً للعلاقات الإقطاعية، البطريركية، الرعوية. فقد**

مزّقت إرباً وبلا هوادة تلك الأواصر الإقطاعية المتعددة التي كانت تقيّد الإنسان إلى "أسياده الطبيعيين"، ولم تبق على أيّ رابطة بين الإنسان والإنسان سوى المصلحة الذاتية العارية، و"الدفع نقداً" دون رحمة. وأغرقت في مياه الحسابات الأنانية الجليدية أقدس ما عرفته الحميّة الدينية، والحماسة الفروسية من ضروب الوجد. وحوّلت القيمة الشخصية إلى قيمة تبادلية... لا يمكن للبرجوازية أن توجد دون أن تثوّر أدوات الإنتاج، وبذلك علاقات الإنتاج، ومعها كامل علاقات المجتمع.

وسوف يكرّر ماركس هذه الموضوعات في رأس المال مع مزيد من العمق والتعقيد. أمّا الآن فلم يكن ثمّة مجال لإحكامها. وما يثبته كلٌّ من الجملة الافتتاحية في البيان ("ثمّة شبح ينتاب أوروبا، هو شبح الشيوعية") وخاتمته المشهورة بالمثل ("فلترتعد الطبقات الحاكمة من الثورة الشيوعية... **يا عمال العالم اتّحدوا!**") هو أنّ هذا البيان كان قطعةً من الدعاية، وعلى الرغم من كونها قطعة تتميّز بذكاءٍ لا يُضاهى. إلا أنّها كُتِبَت بتعجّل في لحظةٍ بدا فيها العصيان المسلّح وشيكاً.

ومن محاسن الصّدف أنّ الثورة اندلعت بالفعل في ذلك الأسبوع من شهر شباط 1848 الذي شهد نشر **البيان**، في باريس

أولاً ثمّ بسرعة النار في الهشيم عبر كثير من أرجاء أوروبا القاريّة. وبعد تنازل الملك لوي فيليب عن العرش وإعلان **جمهورية فرنسية**، أمرت الحكومة البلجيكية التي أصابها الهلع كارل ماركس بمغادرة البلاد خلال أربعٍ وعشرين ساعة وبألاّ يعود إليها قطّ. ومن حسن الحظّ أنّه كان قد تلقّى للتوّ دعوةً من الحكومة المؤقتة في باريس: "ماركس الطيّب والمخلص... لقد نفاك الطغيان، وهاهي فرنسا الحرّة تفتح بواباتها لك ولجميع أولئك الذين يقاتلون من أجل القضية المقدّسة، قضية إخاء جميع الشعوب". غير أنّه لم يمرّ شهور على مكوث ماركس في باريس حتى غادرها إلى كولون على أمل نشر الثورة في ألمانيا. وكان سلاحه المُعْتَمَد، كالعادة، هو الكلمة المطبوعة: فقد أسّس جريدة يومية جديدة، هي Neue Rheinische Zeitung (الجريدة الرينانية الجديدة)، التي خضعت لمضايقات رسمية متواصلة طيلة حياتها القصيرة. وفي تموز مَثَلَ ماركس أمام القضاء بتهمة "السّبّ والقذف بحقّ النائب العام"؛ وفي أيلول، بعد إعلان الأحكام العرفية، أوقف حاكم كولون العسكري نشر الجريدة شهراً؛ وفي شباط التالي، حين تلاشت تماماً أيّ إمكانية للثورة، اتُّهِمَ ماركس "بالتحريض على التمرّد" لكنه أقنع هيئة المحكمة ببراءته بخطبةٍ ألمعية ألقاها من قفص الاتّهام. وأخيراً، في آذار 1849، قامت السلطات البروسية

بمحاكمة نصف هيئة التحرير ونصحت النصف الآخر -ومن بينهم ماركس، الذي جُرِّد من حق المواطنة- بأن يغادروا البلاد.

عاد ماركس إلى باريس في حزيران 1849، ليجد المدينة في قبضة الردّة الملكية ووباء الكوليرا. ولأنه زُوِّد بأمر رسميّ يقضي بإبعاده إلى منطقة موربيهان المبتلاة بالملاريا في بريتاني، لجأ إلى البلد الأوروبي الوحيد الذي كان لا يزال مستعداً لإيواء الثوريين الذين لا جذور لهم. فأبحَرَ إلى بريطانيا في 27 آب 1849 وبقيَ فيها حتى وفاته عام 1883. وقد كتب إلى إنجلز، الذي كان في زيارة إلى سويسرا: "عليك أن تغادر إلى لندن في الحال. وفي لندن سوف نغرق في العمل".

وبعد بضعة أشهر على وصوله إلى لندن. لاحظ كارل ماركس في واجهة متجر في شارع ريجينت وجود أنموذجٍ شغّال لمحرّكِ قطارٍ كهربائيّ. "فتدفّق حيويةً وإثارةً"، كما يقول شاهدٌ، ليس بسبب الإثارة التي تشيعها الجدّة بل بسبب ما كان ينطوي عليه ذلك من نتائج اقتصادية. فقد قال: "حُلَّت المشكلة: النتائج المترتّبة على ذلك لا تُحَدّ. وفي أعقاب الثورة الاقتصادية لا بدّ للثورة السياسية أن تأتي. لأنّ هذه الأخيرة ليست سوى التعبير عن الأولى". ولعلّ أحداً آخر في زحمة شارع ريجينت لم يتوقّف ليتأمّل العواقب الاقتصادية والسياسية التي ستترتّب على حصان طروادة الحديدي هذا: أمّا ماركس، فكان ذلك كلّ ما يهمّه.

ولأنّ ماركس حصل في حزيران 1850 على بطاقة تخوّله الدخول إلى قاعة المطالعة في **المتحف البريطاني**، فقد قضى شطراً كبيراً من السنة التالية في قراءة كتب الاقتصاد والأعداد القديمة من **الإيكونوميست**. وفي نيسان من العام 1851 أعلن قائلاً: "لقد حقّقتُ إلى الآن ذلك التقدّم الذي يتيح لي أن أنهي المادة الاقتصادية بكاملها في خمسة أسابيع. وهذا ما سيمكّنني من أن أُكْمِلَ الاقتصاد السياسي في البيت وأتفرّغ لفرع معرفيّ آخر في **المتحف**". كان يجلس في قاعة المطالعة من التاسعة صباحاً حتى السابعة مساءً في معظم الأيام، غير أنّه لم تبد ثمّة نهاية لتلك المهمة التي ألقاها على عاتقه. وقد كتب في حزيران: "المادة التي أعمل عليها متشابكة ومعقّدة على نحوٍ لعين فلا يمكن لي، مهما بذلت من جهدٍ، أن أنتهي قبل ستة أسابيع أو ثمانية. وعلاوةً على هذا، فإنّ هنالك تلك الانقطاعات الدائمة من النوع العملي، والحتمية في الظروف البائسة التي نعيشها هنا...".

فمنذ لحظة وصولهما إلى لندن، راحت المصائب المنزلية تحلّ بكارل وجيني ماركس واحدةً بعد أخرى. فقد كان لديهما ثلاثة أطفال من قبل، والرابع وُلِدَ في تشرين الثاني 1849. وحين طُرِدوا من شقّة تشيلسيا في أيار 1850 لعدم تسديد الإيجار، وجدوا مأوى مؤقّتاً في منزل تاجر دانتيلا يهودي في دِنْ ستريت، في سوهو، حيث قضوا صيفاً بائساً يترنّحون على شفا العوز قبل أن ينتقلوا

إلى بيت أكثر استقراراً أعلى الطريق. وكانت جيني حاملاً من جديد، ومريضةً على الدوام. وكان إنجلز يأتي لإنقاذهم مضحياً بمطامحه الصحفية الخاصة في لندن ثم يعود إلى مكتب إرْمِن وإنجلز في مانشستر، حيث بقي على مدى العشرين عاماً التالية. ومع أنّ ذلك كان إلى حدٍّ بعيد بهدف تقديم الدعم لصديقه الألمعيّ المفلس، إلاّ أنّه عمل أيضاً كنوع من العميل خلف خطوط العدو، فكان يرسل لماركس تفصيلات موثوقة عن تجارة القطن وملاحظات خبيرٍ عن حالة الأسواق الدولية، إضافةً إلى مخصّصات منتظمة من الأوراق النقدية، كان يستلّها من صندوق المبالغ الصغيرة المخصّص للإنفاق على الأمور الثانوية أو يستلبها بالمكر والخداع من حساب الشركة المصرفي.

وعلى الرغم من هذه المعونات المالية، كان آل ماركس يعيشون في القذارة وأقرب إلى اليأس. فالأثاث في شقتهم المؤلّفة من غرفتين كان محطّماً، أو بالياً، أو ممزّقاً كلّه، مع طبقة من الغبار تعلو كلّ شيء. وكان البيت كلّه - الأب والأم، والأطفال، والمدبّرة- ينام في غرفة نوم خلفية صغيرة، في حين تُرِكَت الغرفة الأخرى كمكتب، وغرفة للّعب، ومطبخ. وقد كتب أحد جواسيس الشرطة البروسية إلى أسياده في برلين بعد أن نجح في دخول الشقّة أنّ ماركس "يعيش حياة مثقّف بوهيميّ حقيقي... وعلى الرغم من أنّه غالباً ما يتكاسل لأيام، فإنّه يعمل مواصلاً الليل بالنهار دون كلل أو

ملل عندما يكون لديه قدر كبير من العمل الذي ينبغي إنجازه. ليست لديه مواعيد ثابتة للنوم والاستيقاظ. وغالباً ما يسهر الليل كلّه، ثمّ يرقد بكامل ثيابه على أريكة عند منتصف النهار وينام حتى العشاء، دون أن تزعجه جلبة الدنيا بأكملها". وكانت المآسي المنزلية المنتظمة تقطع هذا الوجود الفوضوي كلّ فترة. فالابن الأصغر لآل ماركس، غيدو، مات فجأةً من نوبةٍ تشنّجات في تشرين الثاني 1850؛ وماتت ابنتهما البالغة من العمر عاماً واحداً، فرانسيسكا، في عيد الفصح عام 1852 بعد هجمة شديدة من التهاب القصبات. أمّا ابن ماركس الآخر، إدغار الحبيب، فمات بالسلّ في آذار 1855. ولأنّ الحزن أفقد ماركس صوابه، فقد اندفع إلى الأمام والتابوت يُنَزَل في الأرض يريد أن يلقي بنفسه خلفه. لكن أحدهم أمسك بيده، في الوقت المناسب.

وقد كتب إنجلز في رسالة التعزية بوفاة فرانسيسكا: "فقط لو أنّ هنالك بعض الوسائل التي تمكّنك وأسرتك من الانتقال إلى حيٍّ صحيٍّ أكثر وغرفٍ أشدّ اتّساعاً". وسواء كان الفقر المدقع هو الذي قتل فرانسيسكا أم لا، من المؤكّد أنّه كان قد سيطر على حياة والديها. فالدائنون الغاضبون - اللحامون، والخبّازون، ورُسُل المحكمة- كانوا لا ينفكّون يقرعون الباب مطالبين بالسداد. وفي شباط 1852، كتب ماركس: "منذ أسبوع وصلت إلى ذلك الحدّ المُفْرِح الذي عجزت عنده عن الخروج بعد أن رهنت معاطفي، ولم

يعد بمقدورنا أن نأكل اللحم نظراً لنفاد رصيدنا". وفي فترةٍ لاحقةٍ من تلك السنة، كشف لإنجلز أنه "خلال الثمانية أو العشر أيام الماضية لم أكن أُطعم الأسرة سوى الخبز والبطاطا، غير أنّه بات من المشكوك فيه اليوم أن أتمكّن من الحصول على أيٍّ منهما... كيف لي أن أخرج من هذه الورطة الجهنّمية؟" وفي ذلك الوقت كان يأتي ماركس معاش منتظم كمراسل أوروبي لصحيفة **النيويورك ديلي تريبيون**، التي كان يقدّم لها مقالين أسبوعياً مقابل جنيهين استرلينيين لكلٍّ منهما، لكن ذلك لم يكن كافياً حتى بوجود المعونة الإضافية التي كان إنجلز يقدّمها، ولا شكّ أنّه كان سبباً آخر لفشل ماركس في التركيز على رائعته الاقتصادية.

"غير أنّ الأمر يقترب بسرعة من الاكتمال، على الرغم من كلّ ذلك"، بحسب ما كتبه ماركس في حزيران 1851. لكنَّ "وقتاً يجيء يضطر فيه المرء لأن ينقطع فجأةً". وما يبيّنه مثل هذا القول هو نوعٌ من غياب معرفة الذات يقارب الهزل: حيث كان بمقدور ماركس أن ينقطع بسرور عن أصدقائه وجمعيّاته السياسية، لكنه لم تكن لديه القدرة على أن ينصرف عن عمله، خاصةً هذا العمل، تلك الخلاصة الوافية للإحصاء والتاريخ والفلسفة والتي ستفضّ في نهاية المطاف أسرار الرأسمالية المخزية. وكلما كان يبحث ويكتب، كان يبدو العمل أبعد عن الاكتمال. وقد نصحه إنجلز في تشرين الأول 1851، قائلاً: "الشيء الأساسي هو أنّ عليك أن تعاود الظهور

أمام الجمهور مرّة أخرى من خلال كتاب كبير... من الضروري ضرورةً مطلقة أن تخرق تلك الرقية التي أوجدها غيابك المديد عن سوق الكتاب الألماني". لكنّ المشروع وُضِعَ جانباً مرّةً أخرى، وراح ضحية مزيد من "الانقطاعات الدائمة". فبعد الانقلاب الفرنسي في تشرين الأول 1851، كتب ماركس **الثامن عشر من بروميير لويس بونابرت**. وتبدّدت السنوات القليلة التالية في عداوات وجدالات عنيفة ضد مهاجرين مثله. فماركس كان يعتبر مثل هذه الأمور تدخّلات سياسية أساسية وليست مجرّد تجليّات للغضب والاستياء، لأنّ المخلّصين الاشتراكيين الكذبة -إنْ لم يُفْضَحوا- أشدّ جذباً للجماهير من الملوك الحقيقيين. وقد أعلن: "إنني مشتبكٌ في صراع حتى الموت مع الليبراليين المخجلين".

وما أعاد ماركس في النهاية إلى دراساته الاقتصادية هو مجيء الزلزال المالي الدولي في خريف العام 1857 بعد أن طال انتظاره. وقد ابتدأت الأزمة بانهيار مصرفيّ في نيويورك، ثم انتشرت عبر النمسا، وألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا مثل قيامةٍ مسرعة. وهُرِعَ إنجلز، الذي كان في فترة نقاهةٍ من مرضٍ ألمّ به، عائداً إلى موقعه في مانشستر لكي يشهد المهزلة: انخفاض الأسعار، والإفلاسات اليومية، والهلع المُفْرِط. وقد كتب في تقريرٍ له: "المظهر العام للبورصة (بورصة القطن) هنا مُفْرِحٌ حقّاً. وقد أغظْتُ زملائي أشدّ الغيظ بهجومي الجريء المفاجئ وغير المُفَسَّر". وبلغت ماركس،

أيضاً، عدوى الروح الميلودرامية لتلك اللحظة. فطوال شتاء 1857-1858 كان يجلس في مكتبه حتى الرابعة صباحاً كلّ ليلة، يتفحّص أوراقه الاقتصادية "لكي تتضح لي الخطوط العامة قبل الطوفان". والطوفان لم يأتِ قطّ: لكنّ ماركس واصل بناء سفينته، مقتنعاً أنّه ستكون ثمة حاجة إليها عاجلاً أم آجلاً. وحين أثبت حسابه البدائي أنه غير كافٍ للصيغ الاقتصادية المعقّدة قام بمراجعةٍ سريعة للجبر، مبرّراً ذلك بأنّه "لمنفعة الجمهور من الأساسيّ بصورةٍ مطلقة أن نبحث الأمر ذلك البحث الشامل".

ولقد بقيت خربشاته الليلية، التي تزيد على 800 صفحة، خفيّةً إلى أن أخرجها **معهد ماركس وإنجلز** في موسكو من المحفوظات عام 1939، ولم تَغْدُ متاحةً على نطاق واسع إلا مع نشر طبعةٍ ألمانية في العام 1953، بعنوان Grundrisse der Kritik der politischen Oekonomie (أسس نقد الاقتصاد السياسي). وعلى الرغم من ضخامة الأسس، إلا أنه يبقى ذلك العمل المُشَظَّى - مثل طبيخ الغجر، كما وصفه ماركس نفسه- أمّا بوصفه حلقةً مفقودة بين مخطوطات باريس عام 1844 والمجلّد الأول من رأس المال (1867) فهو يبيّن استمرارية أفكار ماركس. فثمة مقاطع طويلة حول الاغتراب، والديالكتيك، ومعنى النقود تردد أصداء مقاطع من مخطوطات 1844. لكن الفارق الأبرز يتمثّل في أنه بات الآن يمزج الفلسفة والاقتصاد في حين كان يتعامل معهما من قبل كفرعين

معرفيين منفصلين. (وقد علّق الكاتب الألماني فرديناند لاسال على ذلك قائلاً: إنَّ ماركس كان "مثل هيغل وقد تحوّل إلى اقتصادي، ومثل ريكاردو وقد تحوّل إلى اشتراكي"). وثمّة مواضع أخرى، يبدو فيها تحليل قوة العمل وفضل القيمة أشبه بمسوّدة لما نجده في رأس المال من بَسْطٍ كامل.

وغالباً ما أشار ماركس إلى عمله في هذه الفترة على أنّه "الخراء الاقتصادي"، ولا شكّ أنّ في هذه العبارة الراشحة بالازدراء شيء من الشعور بالإثم. فمنذ العام 1845 زعم ماركس أنَّ بحثه في الاقتصاد السياسي يكاد ينتهي، وظلَّ يكرر هذه الكذبة ويزيّنها على مدى الثلاثة عشر عاماً التالية لدرجة أنّ توقّعات أصدقائه قد ارتفعت إلى ذروة تكاد تكون مستحيلة. فقد حكموا على الأمر من خلال الزمن الذي استغرقه هذا العمل، وتصوّروا أنه لا بدّ أن يكون تلك الشحنة المتفجّرة الضخمة التي ستدكّ في الحال صروح الرأسمالية. أمّا النشرات الإخبارية المنتظمة إلى إنجلز في مانشستر فقد أَبْقَت على أسطورة التقدّم الواسع. ففي كانون الثاني 1858 أعلن ماركس: "لقد أطحت تماماً بنظرية الربح كما قُدِّمَت إلى الآن". غير أنَّ الحقيقة هي أنَّ كلّ ما كان لديه بعد تلك النهارات الطويلة في **المتحف البريطاني** والليالي الأطول وراء مكتبه لم يكن سوى كومة من دفاتر الملاحظات التي يتعذّر نشرها، ممتلئةً بالمذكّرات الموجزة العشوائية.

وفي مطلع العام 1858، عرض فرديناند لاسال أن يرتّب لماركس إبرام عقد مع ناشر يُدْعى دُنكر (كانت زوجته إحدى خليلات لاسال). وأخبر ماركس الناشر بأنَّ "عَرْضَهُ النقدي لمنظومة الاقتصاد البرجوازي" سوف يتوزّع على ستّة كتب. ينبغي أن تصدر على نحوٍ متتالٍ: "1-حول رأس المال (ويحتوي على بضعة فصول تمهيدية). 2- حول ملكيّة الأرض. 3- حول العمل المأجور. 4- حول الدولة. 5- التجارة الدولية. 6- السوق العالمية". كما أخبره بأنَّ المجلّد الأول سيكون جاهزاً للطباعة في أيار، ويتلوه المجلد الثاني خلال بضعة أشهر، وهلم جرا. غير أنَ جسد ماركس تمرّد محتجّاً، كما كان يحصل غالباً حين يواجه ماركس مواعيد أخيرة صارمة، فقد أفضى لإنجلز في نيسان 1858، قائلاً: "كنتَ مريضاً جداً هذا الأسبوع لدرجة العجز عن التفكير، أو القراءة، أو الكتابة، أو أيّ شيء في الحقيقة". فنظراً لآلام الكبد التي حلّت به، وجد ماركس أنّه كلما جلس وكتب لساعتين "كان عليّ أن أرقد ليومين".

كانت تلك مرثاة مألوفة. "واحسرتاه، لقد اعتدنا كثيراً على هذه الضروب من تبرير عدم إتمام العمل"، هذا ما علّق به إنجلز بعد سنوات كثيرة، وهو يعيد قراءة بعض الرسائل القديمة. وقد اعترف ماركس نفسه قائلاً: "إنّ مرضي ينشأ في العقل على الدوام". غير أنّه كانت هنالك ضروب من الإلهاء المبرّر إلى حدٍّ بعيد؛ فقد أصيبت ابنته إليانور بالسعال الديكي؛ وكانت زوجته

"حطاماً عصبياً": وكان المسترهن والبائع بالتقسيط يصرخان مطالبين بالسداد. ولقد علّق ماركس على ذلك بنوعٍ من الفكاهة المريرة قائلاً: "لا أحسب أنّ أحداً قط قد كتب عن "النقود" وجيوبه خاوية إلى هذا الحدّ". ومع أنّه لم يكتب أي شيء تقريباً خلال الصيف، فقد وعد في نهاية أيلول عام 1858 بأنّ المخطوطة ستكون جاهزةً لإرسالها "خلال أسبوعين"، لكنه اعترف بعد شهر أنّ "الأمر سيستغرق أسابيع قبل أن أتمكّن من إرسالها". لقد تآمرت عليه الدنيا كلّها: حتى الأزمة الاقتصادية العالمية، بإخفاقها السريع، أثارت لديه مزاجاً سيئاً وسبّبت له "ألم أسنان مروّعاً".

وفي منتصف تشرين الثاني، بعد ستة أشهر من الموعد النهائي الذي سبق تحديده، سأل لاسال بلطفٍ وبالنيابة عن الناشر البرليني ما إذا كان الكتاب على وشك الانتهاء. وردّ ماركس بأنّ المماطلة "ليست سوى محاولة لإعطائه [أي الناشر] أفضل قيمة مقابل ماله". وقد شرح ذلك، قائلاً:

بدا الأسلوب في كلٍ ما كتبته مُلطّخاً باضطراب الكبد. ولديَ دافعٌ مضاعف لئلا أسمح لهذا العمل بأن يفسد لأسباب طبية:

فهو نتاج خمس عشرة سنة من البحث، أي أفضل سنوات عمري.

وفيه نظرةٌ مهمّة إلى العلاقات الاجتماعية تُعْرَض لأول مرّة على نحوٍ علمي. ولذلك فإنني أدين إلى الحزب بألاّ أشوّه هذا الشيء بذلك النوع من الأسلوب الخشبي الثقيل الناجم عن كبدٍ مضطرب...

سوف أنتهي بعد حوالي أربعة أسابيع من الآن، كوني بدأت للتوّ بالكتابة الفعلية.

ولا بدّ أنّ هذا قد أدهش لاسال، الذي سبق أن أكّد له ماركس في شباط أنّ النصّ في "مراحله النهائية". أمّا إنجلز فقد صُدِم. وبعد أنّ أرسل ماركس الطرد أخيراً إلى برلين في كانون الثاني 1859، قال لإنجلز: "تقع المخطوطة في حوالي اثنتي عشرة ملزمة (192 صفحة) (ثلاثة أجزاء) وعلى الرغم من أنها تحمل عنوان "الرأسمال بوجه عام"، إلاّ أنّ هذه الأجزاء - ولا ترتيك لذلك- لا تحتوي بعد على أيّ شيء في موضوع الرأسمال". فبعد كلّ تلك الجعجعة الطويلة والصاخبة، لم يقدّم سوى مجلد نحيل. ليس نصفه سوى تلخيص لنظريات اقتصاديين آخرين. والمقطع الوحيد الذي يتّسم بأهمية دائمة هو تصدير عن سيرته الذاتية يصف فيه كيف قادته قراءة هيغل والكتابة الصحفية في **الجريدة الرينانية** إلى الاستنتاج أنّ "تشريح المجتمع المدني ينبغي أن نجده في الاقتصاد السياسي".

وحين بدأ يلوح يوم النشر، أبدى ماركس من المغالاة ما يبديه الباعة الجوّالون الذين لا ينفكّون يمتدحون بضائعهم ويرفعون من قيمتها. فقد توقّع للكتاب - الذي دُعِيَ الآن **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي**- أن يُتَرْجَم في أرجاء العالم المتحضّر ويحظى بالإعجاب. لكن أصدقاءه روّعوا: فالاشتراكي الألماني فلهلم ليبنكخت قال: إنّه لم يسبق لكتاب أن خيّبه بهذا القدر. ولم يَحْظَ الكتاب سوى ببضع مراجعات. واشتكت جيني ماركس قائلةً: "الآمال الخفيّة التي عقدناها طويلاً على كتاب كارل استخفّت بها جميعاً مؤامرة صمت الألمان. لعلّ الجزء الثاني أن يهزّ النؤومين ويخرجهم من سباتهم".

كان من الواجب تسليم الجزء الثاني بعد بضعة أشهر من الأول. وقام ماركس الآن بتعديل الموعد النهائي قليلاً، وفرض "حداً أقصى" هو كانون الأول 1859 لإكمال أطروحته في الرأسمال، تلك الأطروحة التي كانت قد حذفت من **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي** على نحوٍ يتعذّر تفسيره. غير أنّ دفاتر ملحوظات ماركس الاقتصادية ظلّت راقدةً على المكتب لم تُفْتَح طيلة السنة التالية بينما كان صاحبها يخوض صراعاً مع كارل فوغت من جامعة بيرن عبر المقالات الصحفية، ودعاوى التشهير، وكتاب كامل. ولم ينته الأمر إلاّ بعد أن أصدر الملك البروسي الجديد عفواً عن المهاجرين بمناسبة الاحتفال بتتويجه، مما زاد آمال ماركس بإمكانية العودة

إلى وطنــه وإطلاق صــحـيــفــة على غــرار **الجــريدة الرينانيــة الجديدة**. وهذا ما دفعه في ربيع العام 181 إلى القيام برحلة طويلة – وعقيمة– إلى ألمانيا، موّلها لاسال، بغية تأمين التمويل لتلك الصحيفة. تلاها نوعٌ من ردّ الجميل، حين قرّر لاسال أن يأتي إلى لندن لحضور **المعرض الكبير** الثاني عام 1862. وقد تذمّر ماركس خلال الأسبوع الثالث من تلك المحنة: "لقد ضيّع الرجل وقتي. والأنكى من ذلك أنّ هذا الأبله ارتأى أنه يمكن لي أيضاً أن أقتل الوقت معه، ما دمت غير منهمك في أيّ "عمل" في هذه الفترة، سوى "العمل النظري"!".

تحوّل ازدراء لاسال لـ "النظرية" إلى ذلك المهماز الذي كان ماركس بحاجة إليه لإنهاء العمل الذي كان النزاع مع فوغت قد قطعه على نحوٍ فاجع. ومع قلّة المهمّات الصحفية التي يمكن أن تلهيه، لجأ ماركس مرّة أخرى إلى قاعة المطالعة في **المتحف البريطاني**، يجمع ذخيرة هجومه الأخير على الرأسمالية. وقد ملأت الملاحظات التي أخذها في عاميّ 1862 و1863 أكثر من 1500 صفحة. وقد فسّر ذلك قائلاً: "إنني أوسّع هذا المجلّد، لأنّ أولئك الأوغاد الألمان يقدّرون قيمة الكتاب تبعاً لحجمه". أمّا المشكلات النظرية التي كانت قد أعيته إلى الآن فقد باتت واضحةً ومنعشة (...). لنأخذ مسألة الريوع الزراعية، أو "قضية الريع الجزائية"، كما دعاها ماركس: "لطالما أضمرتُ شكوكاً حيال

صوابية نظرية ريكاردو المطلقة. وقد كشفت على نحوٍ مسهب قرارة هذا الخداع". فديفيد ريكاردو كان قد خلط ببساطة بين القيمة والسعر. وأسعار المنتجات الزراعية كانت أعلى من قيمتها الفعلية (مقاسةً بوقت العمل المتجسّد فيها)، وكان سيّد الأرض يضع الفارق في جيبه على شكل ريعٍ أعلى: أما في ظلّ نظام اشتراكيٍّ فيمكن إعادة توزيع هذه الزيادة لمنفعة العمال. وحتى لو بقي سعر السوق على ما هو عليه. فإنّ قيمة البضائع - أي "طابعها الاجتماعي"- تتغير تماماً.

بَيْد أنّ سرور ماركس بالتقدّم الذي حقّقه فرّخ نوعاً من التفاؤل المفرط. ففي نهاية 1862، كتب مُعْجَبٌ من هانوفر، هو الدكتور لودفيغ كوغلمان، يسأل عن الموعد المتوقّع لصدور تتمة **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي**. وردّ ماركس قائلاً: "لقد انتهى الجزء الثاني أخيراً، ولم يبقَ سوى نَسْخِه على نحوٍ خالٍ من العيوب وصَقْلِه النهائي قبل أن يذهب إلى المطبعة". كما كشف لأول مرّة أنه تخلّى عن العنوان الثقيل الذي وضعه أثناء العمل، "**مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الثاني**". فالكتب الكبيرة تستحق، بنوعٍ من المنطق العكسي، عناوين قصيرة، ولذلك "سوف يظهر تحت عنوان رأس المال".

وحقيقة الأمر أنّ خشبة ماركس الخام كانت بحاجةٍ إلى مزيد من النجارة قبل أن تغدو جاهزةً لـ "الصقل النهائي": وسرعان

ما لاحت ألهية جديدة وأغرته بالخروج من ورشته. فماركس كان قد رفض جميع عروض المشاركة في جماعات سياسية جديدة منذ انهيار **عصبة الشيوعيين** عام 1850، "مقتنعاً قناعة راسخة أن دراساتي النظرية أعظم نفعاً للطبقة العاملة من تطفّلي على جمعيات فات أوانها". لكن الفضول غلبه في أيلول 1864 حين وصلته دعوة لحضور أوّل اجتماع تعقده **جمعية الشغيلة العالمية**، وهي تحالف أنجلو فرنسي لنقابيين واشتراكيين. ومع أنّ ماركس حضر الاجتماع كمراقب صامت، إلاّ أنّه اختير في النهاية للمجلس العام، وفي عام 1865 أصبح القائد الفعليّ.

كان ذلك التزاماً مبدّداً للوقت. وثمّة رسالة إلى إنجلز في آذار 1865 تصف كيف جرت الأمور خلال أحد الأسابيع: فمساء الثلاثاء كان مخصّصاً لـ **المجلس العام**، الذي تواصلت مشاحناته إلى ما بعد منتصف الليل: وفي اليوم التالي كان هنالك اجتماع عام في **كوفنت غاردن** إحياءً لذكرى العصيان المسلّح في بولندا؛ والسبت والإثنين كانا مكرّسين لاجتماعين عقدتهما اللجنة بشأن "المسألة الفرنسية"، استمرّ كلٌّ منهما حتى الواحدة صباحاً؛ وكذا الحال بالنسبة للثلاثاء، مع مباراة أخرى طويلة بالألفاظ النابية بين أعضاء **المجلس العام** الإنجليز والفرنسيين. وبين هذه المشاغل جميعاً، كان ثمّة "أُناس يندفعون على هذا النحو أو

ذاك لرؤيتي" بشأن مؤتمرٍ حول التصويت الذي سيجري في نهاية الأسبوع القادم. واشتكى ماركس: "يا لها من مضيعة للوقت!". وهذا ما كان يعتقده إنجلز أيضاً. فلماذا يرغب صديقه في أن يقضي ساعات يوقّع بطاقات العضوية ويساجل أعضاء اللجنة النكدين في حين يمكنه أن يكون وراء مكتبه يكتب رأس المال؟ وقد حذّر بعد نوبةٍ أخرى من الشجار الداخلي بين الفرنسيين: "لطالما اعتقدتُ أنّ **الإخاء** الساذج في **الجمعية العالمية** لن يدوم طويلاً. ولسوف يمرّ في كثيرٍ من هذه الأطوار ويأخذ قَدْراً كبيراً من وقتك".

وفي صيف العام 1865 كان ماركس يتقيّأ يومياً ("نتيجةً للطقس الحار واليرقان المرتبط به") وكان مصاباً بالدمامل. وعلى حين غرّة تدفّق الضيوف على المنزل - شقيق جيني قادماً من ألمانيا، وصهر ماركس قادماً من جنوب إفريقيا، وابنة أخته قادمة من ماسترخت- وكانوا سبباً لمزيد من الانقطاع المؤسف عن العمل. وكان هنالك أيضاً ذلك الطابور المألوف من الدائنين الذين "يقرعون على بابي، وينفد صبرهم يوماً بعد يوم". غير أنَّ رائعة ماركس كانت توشك على الاكتمال، في قلب هذه الدوّامة. وفي نهاية العام كان **رأس المال** مخطوطةً في 1200 صفحة. فوضى مثقلة بالتشطيب والخربشة التي لا سبيل إلى فكِّ مغاليقها. وفي رأس السنة 1866

جلس ماركس لكي ينجز نسخة نظيفةً خاليةً من العيوب، أو لكي "ينظّف الطفل باللعق واللحس بعد آلام ولادة مديدة". ولم يستغرق ذلك سوى سنة وبضع السنة. حتى اضطراب الكبد والدمامل لم يثنيا ماركس عن عزمه: وقد كتب الصفحات القليلة الأخيرة واقفاً إلى مكتبه لأنَّ طفحاً من البثور في وركيه كان قد جعل الجلوس مؤلماً أشدّ الألم. (وكان الأرسينيك، المسكّن المألوف، "يبلّد عقلي كثيراً وكنتُ بحاجةٍ لأن أحافظ على فطنتي وحصافتي"). وسرعان ما وقعت عينا إنجلز الخبيرتان على مقاطع معينة في النصّ تركت الدمامل آثارها عليها، ووافق ماركس على أنّها يمكن أن تكون قد أضفت على النثر مسحةً حيويةً. "وعلى أيّ حال، آمل أنَّ البرجوازية لن تنسى دماملي إلى الممات. يا لهم من خنازير!".

وما إنْ أكمل ماركس الصفحة الأخيرة حتى اختفت البثور. وقال له إنجلز: "لطالما شعرت بأنَّ الكتاب اللعين، الذي تنجزه منذ وقت طويل جداً، كان في صميم محنتك، وأنّك لن تتخلّص من هذه المحنة، ولن يمكنك أن تتخلّص منها، قبل أن تنزله عن ظهرك". وإذْ شعر ماركس بأنّه بات "سليماً معافى (...)"، انطلق إلى هامبورغ في نيسان 1867 لكي يسلّم المخطوطة ويشرف على طباعتها. حتى الأخبار التي بلغته بأنّ الناشر يتوقّع استلام المجلّدين التاليين قبل نهاية العام لم تستطع أن تكبح بهجته. "آمل وأعتقد واثقاً أنني

سأنجز ذلك في غضون عام. أمّا ردّات فعل أولئك الذين أُتيح لهم أن يلقوا نظرة على أجزاء من العمل فقد شجّعته على أن يأمل لاسمه وشهرته أن يدوّيا في أرجاء أوروبا.



الفصل الثاني

الولادة

"البدايات صعبةٌ على الدوام في جميع العلوم"، هكذا حذّر ماركس في تصديره رأس المال. غير أنّه كان يمكن أن يضيف أنّ صعوبتها لا تبلغ نصف صعوبة الخواتيم: فالمجلد الأول كان المجلد الوحيد الذي أكمله قبل وفاته. فسنوات الكَدْح والكفاح كانت قد أنهكت جسده وذهنه.

ولقد كتب لمترجمه الروسيّ في تشرين الأول 1868: "عليك ألاّ تنتظر المجلد الثاني. ربّما يتأخَّر نشره ستة أشهر أخرى. فلا أستطيع أن أنهيه قبل أن تكتمل وتُنْشَر استقصاءات رسمية معينة، كانت قد بدأت في العام الماضي (وفي العام 1866) في فرنسا، والولايات المتحدة، وإنجلترا". وفي عام 1870، كانت لدى ماركس أعذار جديدة يبرّر بها التأخير: "لم يقتصر الأمر على أنّ مرضي

قد أخّرني طيلة الشتاء، بل وجدتُ أيضاً أنّ من الضروري أنّ أنكبّ على لغتي الروسية لأنّه من الأساسي، في التعامل مع مسألة الأرض، أن يدرس المرء علاقات ملكية الأرض الروسية من مصادرها الأصلية". وخلال السنوات القليلة التالية تراكم لديه جبل من الكتب والإحصاءات الروسية، مما أثار أشدّ الحنق لدى إنجلز، الذي قال إنّه كان يودّ أن يحرقها. فقد اشتبه في أنّ ماركس كان يستخدمها كمتراس يمكن أن يختبئ خلفه من مناشدات أصدقائه وناشريه الغاضبة.

وهذا الاشتباه كان مُبَرَّراً تماماً. فحين بدأ إنجلز بجمع المجلد الثاني من جبل الورق الذي تركه بعد وفاته عام 1883، وصف جسامة مهمّته في رسالة إلى الاشتراكي الألماني أوغست بيبل:

> **إلى جانب الأجزاء التي اكتملت تماماً هنالك أجزاء أخرى ليست أكثر من خطوط عريضة، ذلك أنّ الكلّ عبارة عن مسوّدة باستثناء اثنين من الفصول. أما المقبوسات المأخوذة من المصادر فلا يحكمها أيّ نوعٍ من النظام، كُوَمٌ منها مختلطة معاً، ولم تُجْمَع إلا على أمل أن يتمّ انتقاؤها مستقبلاً. وإضافةً إلى ذلك هنالك كتابة بخطّ اليد من المؤكّد أنّ أحداً لا يمكنه أن يفكّ مغاليقها سواي، بصعوبة بالطبع. وتسأل: لماذا كان ينبغي ألاّ أعرف -من بين الناس جميعاً- إلى**

أيِّ مـدى وصل الأمـر؟ ذلك بسـيط تمامـاً: لأنني لو عرفت، لكنتُ أزعجته ليل نهار إلى أن ينتهي كلّ شيء ويُطبَع. وماركس كان يعلم ذلك أكثر من أي أحد آخر.

ظهر المجلّد الثاني في العام 1885، وتلاه مجلد ثالث (جمعه إنجلز أيضاً) في العام 1894. أمّا ما يُدعى في العادة بـ "المجلد الرابع"، **نظريات القيمة الزائدة** (1905)، فقد حقّقه كارل كاوتسكي من ملاحظاتٍ حول تاريخ علم الاقتصاد كتبها ماركس أواسط ستينيات القرن التاسع عشر. وتتألّف في معظمها من مقتطفات ومقبوسات مستمدّة من المنظّرين السابقين مثل آدم سميث وديفيد ريكاردو.

وباختصار، فإنّ **رأس المال** هو ذلك العمل غير المكتمل، والمتشظّي: فخطة ماركس الأصلية، كما نذكر، كانت تتصوّر ستة مجلدات. وكما يقول الباحث الماركسي ماكسيميليان رَبِل، فإننا "لسنا إزاء كتاب ماركسيّ مقدّس بنواميس آزليّة منظّمة". ونحن نلحّ على هذا الأمر لأنّ كثيراً من الشيوعيين تعاملوا مع هذا الكتاب كأنّه كتاب مقدّس، واثقين من صحّة كلّ ما قاله ماركس ومن خطأ كلّ ما لم يقله. وهذان رأيان بعيدان عن الاحتمال كلاهما: فثمّة ضروب من الصمت والإغفال كان يمكن لماركس أن يسدّها لو امتلك ما يكفي من الطاقة والوقت؛ وثمة ضروب من الخطأ وسوء الفهم، وَقَع عليها نقّاد ماركس بنوعٍ من الإحساس بالظَّفَر، وينبغي أن

يعترف بها أيضاً أولئك الذين يعجبهم رأس المال. ذلك أنَّ "اكتشاف ماركس الألمعيّ قارّة جديدة بالفعل"، كما يقول مايكل ليبويتز، "لا يعني أنّه رسم على نحوٍ صائبٍ خارطة هذه القارة برمّتها".

والأرض المجهولة التي انطلق ماركس ليستكشفها هي عالم الرأسمالية الصناعية الجديد -مشهدٌ لم يعرفه آدم سميث- لكنّه حذّر قرّاءه منذ البداية من أنهم يطأون أرضاً فانتازية حيث تختلف حقيقة الأشياء جميعاً عمّا تبدو عليه. انظروا إلى الأفعال التي ينتقيها في أول جملة من رأس المال: "تبدو ثروة المجتمعات التي يسود فيها أسلوب الإنتاج الرأسمالي **كأنها** "جَمْعٌ هائلٌ من السلع"؛ وتبدو السلعة الفردية **كأنّها** الشكل الأولي لهذه الثروة" (التشديد لي). ومع أنَّ هذه الجملة أقلّ درامية من الجملة الافتتاحية الشهيرة في **البيان الشيوعي** ("ثمة شبحٌ ينتاب أوروبا ...")، إلاّ أنّ الفحوى هي ذاتها: إننا ندخلُ عالم أشباح وأطياف، وصفحات رأس المال تعجُّ بعبارات مثل "واقع شبحيّ" و"شبح وهميّ" و"وهمٌ محض"، و"شَبَه كاذب". فلا يمكنه أن يكشف الاستغلال الذي تعتاش عليه الرأسمالية إلا إذا اخترق أحجبة الوهم هذه.

فالسلعة، كما يرى ماركس، تتميّز بخاصّتين: قيمتها الاستعمالية وقيمتها التبادلية. واستعمال شيء أو نفعه واضح بما فيه الكفاية: فالمعطف يدفئنا ويقينا البلل، ورغيف الخبز يقوتنا. ولو قيست القيمة التبادلية بالاستعمال أو النفع، لكان رغيف الخبز

أغلى بكثير من صُدْرَة حريرية مشغولة بألمعية، على سبيل المثال، لكن الحال ليس كذلك كما نعلم. فمن أين تأتي القيمة التبادلية، إذاً؟

لنأخذ الآن سلعتين، كالحنطة والحديد على سبيل المثال. فمهما تكن علاقتهما التبادلية، يظلّ بمقدورنا على الدوام أن نعبّر عن هذه العلاقة بمعادلة تتساوى فيها كمية معينة من الحنطة مع كمية معينة من الحديد، مثلاً: كوارتر واحد من الحنطة = س كغم من الحديد. فما الذي تعنيه هذه المعادلة؟ إنها تعني أنّ هنالك عنصراً مشتركاً موجوداً بالقدر ذاته في شيئين مختلفين، هما كوارتر واحد من الحنطة وس كغم من الحديد. وبذلك يكون كلٌ منهما مساوياً لشيء ثالث، ليس بحدّ ذاته هذا ولا ذاك. ولذلك ينبغي لكلٍ منهما، ما دام قيمةً تبادليةً، أن يكون قابلاً لأن يُرَدّ إلى هذا الشيء الثالث.

ويتمثّل العنصر الواحد المشترك الذي تتقاسمه السلع في أنّها نتاجٌ للعمل. ولذلك ينبغي أن تعكس قيمةُ شيءٍ ما مقدارَ العمل "المتبلور" فيه: أي ذلك العمل المنخرط مباشرةً في صنع هذا الشيء، إضافةً إلى العمل الذي أَنْتَجَ الآلات المستخدمة في صنعه، والعمل المُنْفَق في الحصول على المواد الخام. (وماركس يسارع إلى القول

إنّه يعني بذلك "وقت العمل الضروري اجتماعياً" : أي الساعات التي يستغرقها عاملٌ متوسّط في إتمام عمله. وإلاّ لكنّا استنتجنا أنّ سلعةً يصنعها عمّال بليدون أو كسالى سوف تكون أكثر قيمة، لأنّ إنتاجها يستغرق وقتاً أطول).

كلُّ هذا مألوف ومعروف، وما من جديد إلى الآن: فقد سبق لآدم سميث، وديفيد ريكاردو، وكثيرين غيرهما من الاقتصاديين الكلاسيكيين أن اقترحوا نظريات مماثلة في "القيمة التي تتحدّد بالعمل". وكان سميث قد استهلّ كتابه **ثروة الأمم** بهذا التأكيد: "إنّ العمل السنويّ لكلّ أمّة هو الرصيد الذي يمدّها في الأصل بكلّ ضروريات الحياة ووسائل الراحة...". لكنّ ماركس يمضي إلى أبعد من ذلك. فكما تتّسم السلع بطابعٍ مزدوج، حيث تتمتّع بقيمة استعمالية وقيمة تبادلية في آنٍ معاً، كذلك يتّسم العمل ذاته بطبيعةٍ مضاعفة. فالقيمة الاستعمالية يخلقها عمل "ملموس" أو "نافع"، يعرّفه ماركس بأنّه "نشاطٌ مُنتِجٌ من نوعٍ محدّد، يجري لغايةٍ محدّدة". أمّا القيمة التبادلية فتُستَمَدُّ من عملٍ "مجرّد" أو "غير متمايز"، يُقاس من حيث مدّته فحسب. وثمّة توتر متأصّل بين هذين الضربين من العمل. فالخياط، على سبيل المثال، قد يجهد في صنع أمتن معطف يقوى على صنعه. غير أنّ متانة هذا المعطف البالغة لن تبقي لدى المشتري أيّ حاجة للعودة إلى هذا الخياط كي يشتري بديلاً لذاك المعطف. الأمر الذي يعرّض عمل الخياط

للخطر. ويصحّ الشيء ذاته على حائك القماش الذي خيط منه المعطف. وهكذا تجدُ الحاجةُ إلى خَلْقِ القيمةِ الاستعمالية ذاتَها في صراعٍ مع الحاجة إلى الاستمرار في خَلْقِ القيمة التبادلية.

ولكي يوضح ماركس وجهيّ العمل أو جانبيه، نجده يغرق في تأمّلٍ للقيم النسبية لمعطفٍ وعشرين ياردة من الكتّان، هو تأمّلٌ مُسْهَب ومُتَخَبِّطٌ للواقع باطّراد. يقول ماركس: "يعني المعطف، ضمن علاقة القيمة التي تربطه بالكتّان، أكثر ممّا يعنيه خارج هذه العلاقة، تماماً مثل بعض البشر الذين يعنون وهم داخل بزّة موشّاة بالذهب أكثر مما يعنون دونها". فالكتّان، بوصفه قيمةً استعماليةً، شيءٌ مختلفٌ عن المعطف ذلك الاختلاف الملموس؛ أما بوصفه قيمةً، فهو الشيء ذاته في حقيقة الأمر، تعبيرٌ عن عملٍ مجرّد. "هكذا يكتسب الكتّان شَكْلَ قيمةٍ يختلف عن شكله الطبيعي. فوجوده كقيمة يتجلّى في تساويه مع المعطف، شأنه في ذلك شأن طبيعة المسيحي الخروفية التي تتجلّى في تشبّهه بِحَمَل الربّ".

وينبغي لهذا التشبيه السخيف أن يُشْعِرَنا مقدّماً بأنّنا نقرأ نكتةً طويلةً سمجة، رحلةَ متشرّدين يجوبون آفاقاً من الهراء. وماركس الطالب كان مفتوناً برواية لورنس ستيرن المسهبة إلى أبعد حدّ **تريسترام شاندي**. وبعد ثلاثين عاماً وجد الموضوع الذي أتاح له أن يحاكي ذلك الأسلوب المهلهل والمفكك الذي كان ستيرن رائداً فيه. ذلك أنّ **رأس المال**، مثل **تريسترام شاندي**، ممتلئ بالتناقضات

والافتراضات، بالتفسيرات العويصة والحماقات النزويّة، بضروب السرد المتكسّرة وغرابة الأطوار اللافتة. وإلاّ كيف كان يمكن له أن ينصف منطق الرأسمالية المُلّغَز والمقلوب رأساً على عقب في أغلب الأحيان. فكما يلاحظ ماركس، في آخر حكايته المتكررة المنهكة عن الكتّان والمعاطف: "تبدو السلعة للوهلة الأولى ذلك الشيء المبتذل، بالغ الوضوح. غير أنّ تحليلها يبيّن أنّها شيء غريب جداً، زاخرٌ بالحيثيّات الميتافيزيقية والتفاصيل اللاهوتية".

فحين يتحوّل الخشب إلى منضدة، يبقى خشباً على الرغم من ذلك: أي يبقى ذلك الشيء العادي المحسوس. لكنه حين يغدو سلعةً يتحوّل إلى شيء عصيّ على الإدراك. "فالمنضدة لا تكتفي بأن تقف بقوائمها على الأرض، بل تقف على رأسها إزاء سائر السلع الأخرى. وتطلق من رأسها الخشبي هذا أفكاراً غريبةً، تثير الدهشة أكثر بكثير مما لو بادرت إلى الرقص من تلقاء ذاتها". ولأنّ السلع المختلفة تعكس عمل منتجيها، فإنّ العلاقة الاجتماعية بين البشر "تتّخذ الشكل الفانتازي لعلاقةٍ بين أشياء". ولا يجد ماركس شبهاً لهذا التحول الغريب إلاّ في عالم الدين الملفّع بالضباب: "ففي هذا العالم تظهر منتجات الدماغ البشري (أي الآلهة) بهيئة كائنات مستقلّة تتمتّع بحياةٍ خاصةٍ بها، وتدخل في علاقات مع بعضها بعضاً ومع الجنس البشري. وكذا حالُ منتجاتِ أيدي البشر في

عالم السلع. وهذا ما أسمّيه الفيتشية التي تلازم منتجات العمل ما إنّ يتمّ إنتاجها كسلع...".

والفيتش بمعناه الديني، هو شيءٌ يُجَلُّ ويُهاب لما يُنسَب إليه من قوى فوق طبيعية، مثل رفات القدّيسين في أوروبا القروسطية. (وفي العام 1842، كان ماركس البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً قد سخر من كاتبٍ ألمانيّ ادّعى أنّ هذا الشكل من الفيتشية "يرتقي بالإنسان أعلى من رغباته الحسّية" وبذلك ينقذه من أن يكون مجرد حيوان. وكان ردّ ماركس اللاذع أنّ الفيتشية، بعيداً عن الارتقاء بالإنسان أعلى من رغباته الحسّية، **هي** ديانة الرغبة الحسّية: "فالفانتازية الناشئة عن الرغبة تخدع عابد الفيتش وتسوقه إلى الاعتقاد بأنّ شيئاً لا حياة فيه سوف يتخلّى عن طابعه الطبيعي لكي يمتثل لرغباته"). والفيتشية، في اقتصاد رأسمالي، هي الاعتقاد بأنّ السلع **تنطوي في جوهرها** على قيمةٍ ما غامضة. وهذا ضلال، كما هو الحال بالنسبة لعظام القدّيسين. يقول ماركس: "إلى الآن، ما من كيميائي قطّ اكتشف قيمةً تبادلية لا في لؤلؤة ولا في ماسة".

وهذا مثال لافتٌ في اختياره، لأنه يكشف عن تقييد في نظرية ماركس. فإذا ما كانت قيمة اللؤلؤ والألماس الاستعمالية لا تُستَمَدُّ، كما يشير ماركس ضمناً، إلاّ من وقت العمل المُنْفَق في اكتشافهما ومعالجتهما، فلماذا يدفع البشر في بعض الأحيان مئات آلاف

الجنيهات الاسترلينية من أجل خاتم واحد من الألماس أو عقد واحد من اللؤلؤ؟ أما من رابط أيضاً بين مثل هذه الأسعار الاستثنائية وقيمة الندرة، أو تصوّرات الجمال، أو حتى التفرّد بمعناه البسيط؟ فلو كان وقت العمل وحده هو العامل المحدِّد، لما استحقّ رَسْمٌ عابثٌ رسَمَه بيكاسو على منديل مائدةٍ في مطعم، أو قبّعة وضعها جون لينون ذات مرّة على رأسه، أكثر من بضع جنيهات.

ولقد تعامل مريدو ماركس الأشدّ تبجيلاً مع هذه المشكلات تعاملاً مزدرياً باعتبارها استثناءات من القاعدة، خاصة ولا أهمية لها. ولكن، ألمْ يُشِر ماركس نفسه إلى أنّ للسلع "حيثيّات ميتافيزيقية وتفاصيل لاهوتية"؟ فنظرية القيمة التي تتحدّد بالعمل قد تكون قليلة الغَناء في فهم السبب وراء بيع بضع خصل من شعر ألفس بريسلي، جمعها حلاّقه، مقابل 115000 دولار في مزاد علنيّ عام 2002؛ ولكن لعلّنا نجد تفسيراً جزئياً على الأقلّ في مفهوم فيتشية السلعة؛ أي في "السحر والأرواح التي تكتنف منتجات العمل". فصنميّة السلعة، في معناها العريض عند ماركس، تمثّل "حكم الشيء على الإنسان، والعمل الميت على العمل الحيّ، والمُنتَج على المُنتِج". (نجد هنا أيضاً ذلك التفتّح البطيء لصورةٍ كان حَبُّها قد بُذِرَ قبل سنوات كثيرة. ففي مقالةٍ لماركس في **الجريدة**

الرينانية عام 1842 عن قانون جديد يمنع الفلاحين من جمع الحطب من الغابات الخاصة، وهو حقّ كانوا يتمتّعون به منذ العصور الوسطى. قال ماركس: "ثمّة احتمال لأن تتأذّى بعض الأشجار الفتيّة، ولا تكاد تكون هنالك حاجة للقول إنّ الأصنام الخشبية هي التي تنتصر في حين يُضَحَّى بالبشر". وقد عاودت هذه الفكرة الظهور في خطبةٍ عام 1856 أمام جمهور من **الشارتيين**: "في أيامنا، يبدو كلّ شيء حاملاً بنقيضه... ويبدو أنّ اختراعاتنا وضروب تقدّمنا جميعاً تؤدي إلى مَنْحِ القوى المادية حياةً فكرية، وإلى تسفيه الحياة البشرية بتحويلها إلى قوة مادية". وكتب في **البيان الشيوعي** أنّ كلّ ما هو صلب يتحلّل ويتحوّل إلى أثير، أمّا الآن، في **رأس المال**، فنجد أنّ كلّ ما هو بشريّ يتحلّل ويتحوّل إلى أشياء بلا حياة تكتسب حياةً وقوةً مدهشتين.

وهنا تبرز صعوبة أخرى، لكن ماركس لا يتردّد في معالجتها هذه المرّة: لماذا يخضع العمال لطغيان الأشياء التي خلقوها ويغتربون عنها؟ وإذا ما كان العمال هم الذين يخلقون قيمة السلعة، فلماذا لا يحصلون على تلك القيمة كاملة؟ ويجيب ماركس أنهم، في اقتصاد غير متطوّر، غالباً ما يحصلون على ذلك. وقد سبق لآدم سميث أن كتب في **ثروة الأمم**: "في تلك الحالة الأصلية، التي تسبق كلاً من تملّك الأرض وتراكم الثروة، كان منتوج العمل بأكمله يعود

للعامل. فلم يكن لديه سيد ولا مالك للأرض ليتقاسمه وإيّاه". فحين يبيع نجارٌ منضدة ويستخدم المال في شراء كيسٍ من القمح، يمكن وصف التعاملات التي أجراها من خلال الصيغة س- ن- س، فالسلع (س) قد تحوّلت إلى نقد (ن)، تحوّل بدوره إلى سلع أخرى. غير أنّ هنالك شكلاً آخر لتداول السلع. شكلاً يحقّق سيادةً مطّردةً في ظلّ الرأسمالية الصناعية. ويمكن أن نصوغه على النحو ن- س- ن. فالرأسمالي يستخدم النقد لشراء سلعٍ متعدّدةٍ – قوة العمل، والمواد الخام، والآلات- تُنتِجُ سلعةً جديدةً، تُباع بعدئذٍ.

ويمكن أن نقسم كلاً من هاتين الدارتين إلى طورين متناقضين متماثلين في كلتيهما: س- ن (بيع) ون- س(شراء). أمّا الذي يميّزهما فهو ترتيب التعاقب: ففي الدارة الأولى تكون السلع مبتدأ الحركة ومنتهاها، وفي الدارة الثانية يكون النقد هو هذا المبتدأ وذاك المنتهى.

> **في التداول س- ن س، يتحوّل النقد في النهاية إلى سلعة تعمل كقيمةٍ استعمالية؛ وبذلك يكون قد أُنفِقَ مرّة وإلى الأبد. أمّا في الشكل المعكوس ن- س- ن، وبخلاف الشكل الأول، فينفق الشاري النقد لكي يستعيده، كبائع... فهو لا يفلت النقد من يده إلاّ مع تلك النيّة الماكرة أن يستعيده ثانيةً. وبذلك فإنّ النقد لا يُنْفَق، بل يُسْلَف وحسب.**

وفي حين أنّ كمية النقد ذاتها تغيّر موقعها مرّتين في "تداول السلع البسيط" الذي تمثّله الصيغة س- ن- س منتقلةً على نحوٍ نهائي من يدٍ إلى أخرى. فإنّ السلعة ذاتها هي التي تغيّر موقعها مرّتين في الصيغة ن- س- ن راجعةً بالنقد إلى نقطة انطلاقه.

ولن يكون ثمّة معنى للمضي بهذه القصة الطويلة المشوّشة إذا ما كان الاستثمار البدئيّ يعود هو ذاته دون تغيير. ولذلك يعيد ماركس كتابة الصيغة ن- س- ن على النحو ن- س- نَ، حيث نَ هو المبلغ الأصلي زائداً بعض الزيادة. "إنني أُطلق على هذه الزيادة أو هذه العلاوة على القيمة الأصلية اسم "القيمة الزائدة"" . وهذه الحركة من ن إلى نَ هي ما يحوّل النقد إلى رأسمال. وبالطبع، فإنّ ماركس يقرّ بأنّه "من الممكن أيضاً أن يمثّل الطرفان س، س، القمح والثياب مثلاً، في الصيغة س- ن- س مقدارين مختلفين كميّاً من القيمة. فالفلاح قد يبيع قمحه بأعلى من قيمته، أو يشتري الثياب بأدنى من قيمتها. كما يمكن، من جهة أخرى، أن يخدعه تاجر الثياب". غير أنّ مثل هذه الفروق في القيمة "عَرَضيّة محضة" ولا تُفْقِد الفارق بين الصيغتين أي شيء من مغزاه أو أهميته. فتداول السلع البسيط -البيع بقصد الشراء- هو وسيلةٌ لغاية، وهي تلبية الحاجات. أمّا تداول النقد كرأسمال فهو غايةٌ بحدّ ذاته.

والقيمة الزائدة هي ما يحوّل النقد إلى رأسمال. ولكن من أين تأتي القيمة الزائدة؟ يتفحّص ماركس هذا اللغز من منظور رأسماليٍ تحت التمرين يُدّعى **مالك النقد**. ويلاحظ أنّ كلّ مرحلة من التداول، ن- س، س- نَ، ليست سوى تبادل لمتكافئات. وإذا ما جرى تبادل البضائع بقيمتها الفعلية، فسوف يكون من المستحيل على **مالك النقد** أن يحقّق ربحاً. ولعلّ المدهش أكثر أنّ الشيء ذاته يصحّ حتى لو لم يَجْرِ تبادل البضائع بقيمتها الفعلية:

> **لنفترض أن ثمّة مزية يتعذّر تفسيرها تتيح للبائع أن يبيع سلعة بأعلى من قيمتها، كأن يبيع ما يساوي 100 ب 110، أي بزيادة اسمية على السعر تبلغ 10٪. وبذلك يضع البائع في جيبه قيمة زائدة تبلغ 10. غير أنّه بعد أن باع يغدو شارياً. ويأتي إليه مالكٌ ثالثٌ للسلع بوصفه بائعاً، يتمتّع هو أيضاً، بدوره، بمزية أن يبيع سلعة أغلى بنسبة 10٪. وبذلك لا يكون صاحبنا (مالك النقد) قد كسب 10 كبائع إلاّ ليفقدها ثانيةً كشارٍ. وتتمثّل النتيجة النهائية في حقيقة الأمر في أنّ جميع مالكي السلع يبيعون بضائعهم واحدهم للآخر أعلى من قيمتها بنسبة 10٪، الأمر الذي يماثل تماماً بيعهم لهذه السلع بقيمتها الحقيقية... فكلّ شيء يبقى على حاله.**

ربما كانت هنالك حالات محدّدة - كما في مثال الفلاح وتاجر الثياب- حيث يُغَشّ رأسماليٌّ غبيّ على نحوٍ يتعذّر شفاؤه ويُدْفَع إلى شراء سلعٍ بأعلى من قيمتها أو بيعها بأدنى من قيمتها. غير أنَّ هذا يصعب أن يكون ذلك المبدأ الذي يشكّل أساس النظام برمّته. ولكي ينتزع صاحبنا **مالك النقد** القيمة الزائدة عليه أن يجد سلعةً تتمتّع بتلك الخاصيّة المحدّدة المتمثّلة في أنها تخلق من القيمة لدى استهلاكها ما يزيد على ما تكلّفه فعلياً. والحظّ يسعف **مالك النقد** بالفعل، فيكتشف سلعةً تتّسم بهذه الصفة الفريدة؛ وهي قوة العمل، التي تتمتّع بتلك "القدرة الخفيّة على أن تضيف قيمةً إلى ذاتها. فهي تلد نسلاً حيّاً، أو على الأقلّ تضع بيوضاً ذهبية".

وقوة العمل، بحسب ماركس، هي سلعة تُقاس قيمتها كما تُقاس قيمة أيّ سلعة أخرى، بوقت العمل الضروري لإنتاجها وإعادة إنتاجها. (وهذا صدى آخر لآدم سميث، الذي رأى أنَّ "الطلب على البشر يحكم بالضرورة إنتاج البشر، شأنهم شأن كلّ سلعة أخرى"). وقد يبدو من الغريب الشائه أن نقوّم البشر كما لو أنّهم معلّبات فول، لكن هذا على وجه الدّقة هو هدف ماركس: فبالنسبة لـ **مالك النقد**، ليست سوق العمل سوى فرع آخر من سوق السلع. فكيف يقوّم **مالك النقد** قيمة هذه السلعة المحدّدة:

> **إذا عمل صاحب قوة العمل اليوم، فإنَّ عليه أن يكون قادراً في الغد على معاودة العملية ذاتها في الشروط**

> **ذاتهـا من القـوة والصـحّـة. ولذلك ينبـغي أن تكون وسائل معيشته كافيةً للإبقاء عليه في حالته العادية كـفـردٍ عـامل. وتتنوّع حـاجـاته الطـبـيـعـيـة، كـالغـذاء والكسـاء والوقـود والسكن، تـبـعـاً لخـصـائص بلده المناخية وسواها من الخصائص الفيزيقية. ومن جهة أخـرى، فـإنّ عـدد مـا يُدْعى مـتطلّبـاته الضـرورية وحجمها، وكذلك طريقة تلبيتها، هي ذاتها نتاجاتٌ للتـاريخ... ولذلك، وبخـلاف السلع الأخـرى، فـإنّ تحديد قيمة قوة العمل يشتمل على عنصر تاريخي وأخـلاقي. ومع ذلك، فـإنّ المقـدار المتـوسّط لوسـائل معيشة العامل الضرورية في بلدٍ معيّن ومرحلة معيّنة هو مقدارٌ معْطى.**

ولأنّ العامل من الفانين، فإنّ مجموع وسائل المعيشة الضرورية تلك ينبغي أن يشتمل على "الوسائل الضرورية لبدلاء العامل، أي لأطفاله، لكي تتمكّن هذه السلالة من مالكي السلعة الخاصة من تأبيد حضورها في السوق". كما يمكن أن تشتمل على عنصرٍ من التعليم والتدريب، "ضئيلٍ للغاية إذا ما كانت قوة العمل عادية".

ويحسب ماركس مجمل ما تتطلّبه المعيشة ويجد أنّه يكافئ تقريباً ستّ ساعات من العمل في اليوم. ولكن هل سيسمح **مالك النقد** لعمّاله بأن ينصرفوا ما إنْ يتمّوا ساعاتهم الستّ من العمل

الضروري؟ من المؤكّد أنّه لن يفعل. فلكي ينال هؤلاء العمال أجورهم ينبغي أن يعملوا خمس أو ستّ ساعات أخرى، فيقدّموا بذلك "عملاً زائداً" هو الذي يخلق ربح الرأسمالي. ويستنتج ماركس أنّ "ما من ذرّة واحدة في القيمة (الزائدة) لا تدين بوجودها إلى العمل غير مدفوع الأجر"، رابطاً هذا الاستغلال "بالنشاط القديم الذي كان يمارسه الفاتح، الذي يشتري السلع من المفتوح بالنقود التي سلبها منه". والفارق الوحيد بين هذه الحقبة والحقب السابقة هو الخداع الذي يُخْفَى به السلب عن أعين ضحاياه.

ولأنَّ **مالك النقد** قد كشف السرّ، فإنّه يرغب بصورة طبيعية في أن يجمع مزيداً من بيوض تلك الأوزّات الذهبية. وأوْضَحُ سبيلٍ لذلك هو أن يجعلها تعمل ساعات أطول. ويبيّن ماركس في الفصل العاشر من **رأس المال**، وعنوانه "يوم العمل"، تلك الكلفة البشرية التي تترتّب على صيَغِه التي تبدو متجرّدة عمّا هو شخصيّ.

كان **قانون المصانع** الصادر في العام 1850 قد حدّد أسبوع العمل البريطاني بستّين ساعة. (ستّين ساعة من العمل الفعلي، كما ينبغي أن نضيف: فذلك كان يعني 12 ساعة عمل خلال أيام الأسبوع الخمسة الأولى من الآحد إلى الجمعة، تُقْتَطَع منها نصف ساعة للفطور وساعة للغداء، فيبقى عشر ساعات ونصف الساعة من العمل؛ فضلاً عن ثماني ساعات يوم السبت). كما أوجد هذا القانون جيشاً صغيراً من مفتّشي المصانع، الذين وفّرت تقاريرهم

نصف السنوية لماركس برهاناً مفصّلاً على "شراهة الرأسماليين إلى العمل الزائد". فقد كان هنالك عددٌ لا يُحصى من السرقات الصغيرة من الوقت المخصّص لوجبات الطعام ومن الوقت المخصّص للراحة، الأمر الذي كان يضيف إلى حقيبة المسروقات المنتفخة: فأحد أرباب العمل قال لأحد المفتّشين: إنَّ تقصير الوقت المخصّص للوجبات عشر دقائق في اليوم "سوف يضع في جيبي ألف جنيه كلّ عام". أمّا الصحافة البرجوازية فقد وفّرت لماركس مزيداً من الذخيرة. ومن ذلك مثلاً ما كشفه تقرير نشرته **الديلي تلغراف** عن تجارة الدانتيلا (المُخَرَّمات) في نوتنغهام من انتزاع "أطفالٍ في التاسعة أو العاشرة من العمر من أسرّتهم القذرة في الثانية، أو الثالثة، أو الرابعة فجراً وإرغامهم على العمل، لقاء ما يسدّ الرمق لا غير، حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً، فتضمر أطرافهم، وتُنْحَل أجسادهم، وتشحب وجوههم، وتغرق طبيعتهم البشرية برمّتها في خمود كخمود الحجر يبعث مرآه على الذعر".

وثمّة أصداء قوية من كتاب فريديريك إنجلز **حال الطبقة العاملة في إنجلترا** (1845)، الذي ضَفر بين الملاحظات الشخصية، والمعلومات الصحفية المثبتة للإدانة، وتقارير اللجان البرلمانية، وتقارير مفتّشيّ المصانع، ونسخ من **هانسارد** [النسخ المطبوعة من المناقشات البرلمانية]. وقد كتب إنجلز: "لقد سرّتني شهادة خصومي"، إذْ أدهشه

حدّ الذهول أنَّ المؤسسة البريطانية قد نشرت كلّ هذا القدْر من الأدلّة التي تدينها. أمّا المقبوسات من "الكتب الزرقاء" الحكومية ومقالات **الإيكونوميست** في رأس المال فتبيّن كم تعلمّ كارل ماركس من هذا التكنيك الذي سبق لإنجلز أن استخدمه.

والفصل المخصّص ليوم العمل، وهو واحد من أطول فصول الكتاب، عبارة عن خلاصة لعدد من قصص الرعب، يضعها ماركس في إطار يناسبها من الأسلوب القوطي. فهو يقول في فقراته التمهيدية: "رأس المال عملٌ ميّت لا يعيش، مثل مصّاص الدماء، إلاّ على امتصاص العمل الحيّ، فيعيش مزيداً من العيش كلّما امتصَّ مزيداً من العمل". وبعد هذا بأكثر من سبعين صفحة، وبعد وليمةٍ من الدّم المتخثّر، يختم ماركس أنَّ "مصّاص الدّماء لن يدع (العامل) يفلت". ولكي يحمي العمال أنفسهم من مصّاص الدماء هذا، "يتعيّن عليهم أن يجمعوا رؤوسهم معاً، وأن يفرضوا، كطبقةٍ، إصدار قانون، يشكّل نوعاً من حاجز اجتماعيّ جبّار يحول بينهم وبين بيع أنفسهم وعوائلهم للعبودية والموت بموجب عقد طوعيّ مع رأس المال". غير أنّه يقرّ بأنَّ مثل هذا القانون لن يكون كافياً بحدّ ذاته للإطاحة بـ **مالك النقد** والرأسماليين من أمثاله، ذلك أنَّ لديهم سبيلاً آخر لزيادة الإنتاجية وتالياً زيادة القيمة الزائدة.

فإذا ما كانت قوة العمل تلك السلعة الفريدة في قيمتها حقّاً، يمكن أن نتوقّع أن يؤدّي التنافس بين أرباب العمل إلى رفع

الأجور، وهذا ما يمكن أن يحصل بالفعل في أوقات العمالة الكاملة. غير أنَّه مع ارتفاع كلفة العمل، يجد **مالك النقد** أنَّ الاستثمار في الآلات الموفِّرة للعمل، ذلك الاستثمار الذي ربّما كان قد بدا غير اقتصادي في السابق، بات الآن ذا معنىً ماليّ، خاصةً إنْ لم يكن بمقدور **مالك النقد** أن يطيل يوم العمل. يقول ماركس إنَّ لدى رأس المال "دافع محايث، وسعيٌ دائم، لأن يزيد إنتاجية العمل، لكي يرخّص السلع، ويرخّص، عبر ترخيص السلع، العامل نفسه".

ويمكن للآلات، نظرياً، أن تخفّف العبء المُلقى على عاتق العامل، لكن ماركس يرى أنَّ آثار الآلات، في ظلّ نظام من الإنتاج الرأسمالي، هي آثار خبيثة على الدوام، على الرغم من المنافع الكبيرة التي تقدّمها للسيد **مالك النقد**. (يبدأ ماركس فصله المخصّص للآلات الصناعية بمقبوس من كتاب جون ستيوارت مل **مبادئ الاقتصاد السياسي**: "من المشكوك فيه أن تكون كافّة الاختراعات الميكانيكية التي تمّت إلى الآن قد خفّفت العناء اليوميّ لأيّ بشريّ"). فالآلة بإحلالها قدرتها الإنتاجية الرهيبة محلّ القوة البشرية المستقلّة تُخْضِع العاملَ لرأس المال مزيداً من الخضوع. فالعامل يفقد مهارته بسبب تلك المهارة غير البشرية التي تملكها الآلات ذاتية الحركة على وجه التحديد. وتضمحل قدرته على الدفاع عن موقعه عبر الاتحاد مع العمال الآخرين – من خلال

الجمعيات المهنية، مثلاً- كلّما اجتمعت الآلات معاً لتشكّل قوّة عظيمة البأس متزايدة أبداً. وهذه الرؤية، كما هو الحال غالباً في رأس المال، هي رؤية مستمدّة من قصص الرعب: "لدينا هنا، مكان الآلة المعزولة، وحشٌ آلي يشغل جسده مصانع بأكملها، وتتفجّر قوته الشيطانية، التي تستتر في البداية وراء حركات أعضائه العملاقة البطيئة والموزونة، في دوّامةٍ سريعة ومحمومة تدوّمها أجهزته العاملة التي لا يحصرها العد". وبقدر ما تستغني الآلات عن الحاجة إلى القوة البشرية تغدو أيضاً وسيلة لاستخدام الأطفال، الذين يتمتعون بقوة عضلية أضأل لكن أطرافهم أمْرَن وأرْشَق، وبذلك تُحْدِثُ انقلاباً في العقد بين العامل والرأسمالي:

> **باتّخاذنا تبادل السلع كأساسٍ لنا، كان افتراضنا الأول أنَّ الرأسماليَ والعامل يواجه واحدهما الآخر كشخصين حرّين، وكمالكين مستقلين، الأول الذي يملك النقد ووسائل الإنتاج، والآخر الذي يملك قوة العمل. غير أنَّ الرأسماليَ بات الآن يشتري الأطفال والقصَّر...**

ويلاحظ ماركس أنَّ الإعلانات التي تطلب عمّالاً من الأطفال غالباً ما تكون شبيهةً بتلك الإعلانات التي كانت تظهر من قبل في الصحف الأميركية وتطلب عبيداً من الزنوج، وهو يورد مثالاً على هذه الإعلانات يستمدّه من تقريرٍ لأحد مفتّشي المصانع

البريطانيين: "مطلوب 12-20 صبياً، ليسوا أصغر من السنّ الذي يمكّنهم من الظهور بمظهر الذين تجاوزوا 13 عاماً. الأجور أربع شلنات في الأسبوع". وتكمن أهمية عبارة "الظهور بمظهر الذين تجاوزوا 13 عاماً" في أنَّ **قانون المصانع** كان يمنع الأطفال دون الثالثة عشر من العمل أكثر من ستّ ساعات في اليوم. وكان يفرض أن يقوم طبيب مُعَيَّن رسمياًّ بالتصديق على أعمار أولئك الأطفال، ويلاحظ ماركس أنّ التناقص الواضح في عدد الأطفال دون الثالثة عشرة من العمر الذين يعملون في الصناعة في خمسينيات القرن التاسع عشر وستينياته "كان في جزئه الأعظم، بحسب الأدلّة التي يقدّمها مفتّشو المصانع أنفسهم، من صنع هؤلاء الأطباء الرسميين، الذين كانوا يغيّرون أعمار الأطفال بما يرضي تعطّش الرأسماليّ إلى الاستغلال وحاجة الأهل إلى الانخراط في هذا الاتجار".

ويؤدّي استعمال التكنولوجيا الرأسمالي إلى إطلاق شكلٍ من الحركة الدائمة. فآلةٌ تعمل ستّ عشرة ساعة في اليوم على مدى سبع سنوات ونصف تنتج بقدر ما تنتج هذه الآلة ذاتها حين تعمل ثماني ساعات فقط على مدى خمس عشرة سنة. ومع أنّها لا تنقل إلى الناتج النهائي مزيداً من القيمة الزائدة، إلاّ أنّها تتيح للرأسمالي أن يبتلع مقداراً من الربح في سبع سنوات ونصف كالمقدار الذي سيبتلعه في الحالة الثانية خلال خمس عشرة سنة. ومن هنا ذلك الباعث القوي لإطالة نوبات مراقبي الآلات، الذين

ليسوا في وَضْعٍ يتيح لهم أن يقاوموا ذلك، لأنَّ الآلة ذاتية الحركة كانت قد شدّدت التنافس على العمل بخلقها ما يدعوه ماركس "الجيش الصناعي الاحتياطي" المؤلّف من العاطلين عن العمل. وهؤلاء السكّان العاملون الفائضون ليسوا نتاجاً ثانوياً ضرورياً من نتاجات الرأسمالية الصناعية وحسب، بل يغدون أيضاً، وبالعكس، رافعةً للتراكم الرأسماليّ بتوفيرهم "كتلة من المادة البشرية جاهزة للاستغلال على الدوام". وحين تتوسّع السوق بسرعة أو تفتتح فروعاً جديدة، كما هو حال السكك الحديدية، "لا بدّ أن تتواجد إمكانية إلقاء جماهير عظيمة من البشر فجأةً إلى القطاعات الحاسمة دون إنزال أي أذى بمستوى الإنتاج في المجالات الأخرى. والسكّان الفائضون هم الذين يوفّرون هذه الجماهير". والطابع الدوريّ الذي تتّسم به الصناعة الحديثة - حيث نجد مرحلةً من النشاط المتوسّط، يتلوها إنتاج بضغطٍ عالٍ، فأزمة وركود- إنّما يتوقّف على تلك العملية المتواصلة من تشكّل الجيش الصناعي الاحتياطي، وامتصاصه، وإعادة تشكّله. ومع أنَّ أطوار هذه الدورة المختلفة تجنّد السكّان الفائضين إلاّ أنّها تغدو أيضاً تلك القوى الفاعلة التي تعيد إنتاجهم.

وبدوره فإنَّ العمل الزائد ينظّم الحركات العامة التي تحركها الأجور. وكما يقول ماركس:

في مراحل الركود والازدهار المتوسط، يُثْقِلُ الجيش

الاحتياطي الصناعي على جيش العمال الفاعل؛ وفي مراحل فرط الإنتاج والنشاط المحموم، يكبح مطالبهم. ولذلك فإنَّ الفائض السكّاني النسبيَ هو الخلفية التي ينجز قانونُ الطلبِ على العمل وعرضهِ إزاءها عملَه.

وليس لدى ماركس أيّ أوهام بشأن التناسق المقدّس المزعوم في قانون العرض والطلب. فالطلب على العمل لا يتوافق مع زيادةٍ في عرض رأس المال. ذلك أنَّ الأمر "ليس أمر قوّتين مستقلّتين تعمل واحدتهما على الأخرى. فالنرد مغشوش". وهنا يشنّ ماركس هجوماً عنيفاً على "واحدةٍ من مآثر التبريريّين الاقتصاديين العظيمة": هي الفكرة التي روّجها عدد من اقتصاديي أواسط العهد الفيكتوري ومفادها أنَّ إدخال آلات جديدة، أو التوسّع في القديمة، "يحرّر" العمال بعض الشيء. فهو يرى أنَّ ذلك لا يحرّرهم إلا بمعنى أنهم يُتركون بغير عمل على الإطلاق. "ويمكن لكلّ كسرة جديدة من رأس المال تتطلّع حولها باحثةً عن وظيفة أن تفيد منهم". وحين يجدون عملاً، فإنَّ خشيتهم من العودة إلى الالتحاق بالجيش الاحتياطي تتركهم أكثر استعداداً للاستغلال. ولذلك يستنتج ماركس أنه كلما زادت إنتاجية العمل، زادت "الكتلة النسبية" للجيش الصناعي الاحتياطي. وهكذا تكون عاقبة ازدياد الثروة الاجتماعية زيادةً في الفاقة الرسمية. "ذلك **هو القانون العام المطلق للتراكم**

الرأسمالي"، كما يعلن ماركس في نفيرٍ حادّ يعبّر عنه التشديد الذي يضعه على هذه الجملة. لكنه لا يلبث أن يقوّضه على نحوٍ مزعج في الجملة التالية ليس غير: "وهذا القانون، شأن جميع القوانين الأخرى، تعدّله أثناء سريانه ظروف كثيرة، ليس من شأننا هنا أن نقوم بتحليلها".

هكذا يصل ماركس، بعد أن نحّى كلّ اعتراض، إلى ذلك الضرب من القطع والجزم الذي يُعَدّ الأسوأ صيتاً في **رأس المال**: وهو أنَّ الرأسمالية تؤدّي إلى "تبئيسٍ" أو إفقارٍ مطّرد للبروليتاريا. فكثير من الفقهاء أخذوا ذلك على أنّه يعني أنَّ ازدهار الرأسمالية المتورّم يتحقّق عبر انخفاض مطلق في أجور العمال ومستوى معيشتهم، ووجدوا أنَّ من اليسير أن يزدروا ذلك ويهزأوا به. انظروا إلى الطبقات العاملة اليوم، وما لديها من سيارات وأجهزة مايكروويف: لم تُفْقَر كثيراً، أليس كذلك؟ بل إنَّ الاقتصاديَّ الأميركي بول ساموِيلسون رأى أنَّ من الممكن التغاضي عن عمل ماركس برمّته وإهماله لأنَّ إفقار العمال "لم يحصل قطّ". ولأنَّ كتب ساموِيلسون كانت قوتاً رئيساً لأجيال من الطلبة الجامعيين في كلٍّ من بريطانيا وأميركا، فقد غدا رأيه هذا هو الرأي الشائع.

غير أنَّ هذا الرأي ليس سوى أسطورة، تقوم على قراءة خاطئة لـ "قانون التراكم الرأسمالي العام" في الفصل 25 من المجلّد الأول من **رأس المال**. فما يقوله ماركس هو أنَّ "الإفقار يشكّل شرطاً

للإنتاج الرأسمالي، ولتنامي الثروة الرأسمالي. وهو جزء من نفقات الإنتاج الرأسمالي العرضية المرافقة: لكن رأس المال يعرف في العادة كيف يلقي تلك النفقات عن عاتقه ليضعها على عاتق الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة". ومن الواضح أنَّ ما يشير إليه ماركس، في هذا السياق، ليس البروليتاريا كلّها بل "أدنى رواسب" المجتمع، كأولئك الذين يعانون من بطالة دائمة، والمرضى، والمنهكين، الذين يشكّلون شريحةً لا تزال موجودة، وغالباً ما يطلق عليها الآن اسم الطبقة الدنيا. (ولقد سبق لمنبوذٍ يهوديّ آخر أن قال: "الفقراء معكم على الدوام"، دون أن يرى أيّ اقتصاديّ إلى الآن أنَّ تعاليم يسوع فقد فقدت كلّ مصداقيّة لها بسبب هذا الإفقار الأبديّ الذي تنبّأ به. بل إنَّ ليجيك كوفالوفسكي نفسه، وهو واحد من أشدّ نقّاد ماركس نفوذاً في القرن العشرين، يسلّم بأنَّ "الفاقة المادية ليست تلك المقدمة المنطقية الضرورية لتحليل ماركس نزع الإنسانية الناجم عن العمل المأجور أو لما يتنبّأ به من دمار الرأسمالية الحتميّ".

وما قاله ماركس هو أنّه في ظلّ الرأسمالية سوف يكون هنالك انخفاض نسبيّ - وليس مطلقاً- في الأجور. وهذا صحيحٌ وواضحٌ: فما من شركة تتمتّع بزيادة في القيمة الزائدة قدرها 20٪ سوف تتخلّى عن كلّ هذه الغنيمة لقوّتها العاملة على هيئة ارتفاع في الأجور قدره 20٪. "ويترتّب على ذلك"، كما يقول ماركس، "أنَّه

بالتناسب مع تراكم رأس المال، لا بدّ أن يزداد حال العامل سوءاً، سواء أكان أجره مرتفعاً أم كان متدنياً" : فالعمل يتلكأ أبعد فأبعد خلف رأس المال، بصرف النظر عن عدد السيارات وأجهزة المايكرويف التي يمكن أن يشتريها العمال.

وعلاوةً على هذا، فإنَّ ماركس يوضح في الفقرة ذاتها بأشدّ ما يكون الوضوح أنَّ تعريفه للفقر (شأن تعريف المسيح) يمضي أبعد بكثير من الليرات والقروش: إلى سحق الروح الإنساني. فإذْ يُصَفَّد العامل إلى رأس المال "بذلك الإحكام الذي يفوق إحكام الأسافين التي قيّد بها هيفايستوس بروميثيوس إلى الصخرة"، فإنَّ بؤس بعضهم يغدو شرطاً ضرورياً لثروة الآخرين:

في النظام الرأسمالي جميع الطرائق المتَّبَعة لزيادة إنتاجية العمل الاجتماعية إنّما تكون على حساب العامل الفرد... إنّها تشوّه العامل وتحوّله إلى مزقة من بقية إنسان؛ وتنحطّ به إلى مستوىً يغدو عنده ملحقاً بالآلة؛ وتدمّر المحتوى الفعليّ لعمله إذْ تحوّله إلى عذاب؛ وتغرّبه عن الطاقات الفكرية التي تنطوي عليها سيرورة العمل بالنسبة ذاتها التي يكون فيها العلم مندمجاً في هذه السيرورة كقوة مستقلّة؛ وتمسخ الشروط التي يعمل في ظلّها، وتخضعه في سيرورة العمل إلى استبدادٍ هو الأشنع بحقارته؛

وتحوّل عمره إلى زمنٍ من العمل، وتلقي بزوجته وطفله تحت عجلات عربة رأس المال... ولذلك، فإنَّ تراكم الثروة في طرف هو في الوقت ذاته تراكمٌ للبؤس، وعذاب العمل، والعبودية، والجهل، والتوحّش، والانحطاط الأخلاقي في الطرف المقابل، طرف الطبقة التي تنتج نتاجها كرأسمال.

والجملة الأخيرة، مأخوذة وحدها، يمكن إيرادها كشاهدٍ آخر على تنبّؤ ماركس بإفقار العمال مالياً ذلك الإفقار المطلق، غير أنَّ معتوهاً وحسب - أو محاضراً في الاقتصاد- هو الذي يمكن أن يتمسّك بهذا التأويل بعد قراءة التنديد الراعد الذي يسبقه.

وفي سبعينيات القرن العشرين جرى كلامٌ كثير على "عصر الرفاه" الوشيك، الذي نادراً ما سيضطرنا إلى القيام بأيِّ عمل، نظراً لما يشتمل عليه من أتْمَتة. كما انهمر سيلٌ من الكتب التي تمعن الفكر في الكيفية التي سنملأ بها أوقات فراغنا المستجدّة دون أن نغدو أولئك الكسالى الذين لا شفاء لهم. وكلُّ من يعود اليوم إلى واحدٍ من هذه الكتب في مكتبات الكتب المستعملة لا بدَّ أن يضحك غير مصدّق. فالمُسْتَخْدَم البريطاني العادي بات يعمل الآن 80224 ساعة زيادةً على مدة العمل التي يعملها طوال عمره، مقابل 69000 ساعة في العام 1981. وبدلاً من إضاعة أخلاق العمل، يبدو أنّ هذا الأخير بات يستعبدنا أكثر من ذي قبل. والإقبال اليوم

هو على كتبٍ تتساءل بقلق كيف يمكن لنا أن نحقّق "توازناً بين العمل والعيش" في عصرٍ لا يوفّر لكثيرٍ من البشر أيّ وقتٍ لأيّ شيء يتعدّى العمل والنوم.

وما كان هذا ليدهش كارل ماركس. فهو في الفصل 12 من **رأس المال** يكشف تلك الأطروحات الاقتصادية أواسط العهد الفيكتوري على حقيقتها والتي "يمكن أن نقرأ في صفحةٍ منها أنّ العامل يدين بالامتنان إلى رأس المال على تطوير إنتاجيته، لأنَّ ذلك قد قصّر وقت العمل الضروري، وفي الصفحة التالية أنَّ عليه أن يبرهن على امتنانه بالعمل في المستقبل 15 ساعة بدلاً من 10". فما يهدف إليه الإنتاج الرأسمالي، كما يقول ماركس، ليس اختصار يوم العمل بل التقليل إلى أدنى حدّ من وقت العمل الضروري لإنتاج سلعة. "فواقعة أنَّ العامل، حين زادت إنتاجية عمله، بات ينتج من السلع عشرة أضعاف ما كان ينتجه من قبل، ويصرف بذلك عشر وقت العمل الذي كان يصرفه على أيٍ منها، لا تحول بأيّ حال من الأحوال بينه وبين مواصلة العمل 12 ساعة كما كان الأمر في السابق ولا بينه وبين أن يُنْتج 1200 قطعة بدلاً 120 من في هذه الساعات ال 12، بل إنَّ يوم عمله قد يُطَوَّل في الوقت ذاته بحيث يُنْتج 1400 قطعة في 14 ساعة". فغاية هذه العملية هي "تقصير ذلك الجزء من يوم العمل الذي ينبغي أن يعمل فيه العامل لنفسه وبهذا تطويل ذلك الجزء من اليوم الذي يبقى فيه حرّاً لكي يعمل للرأسمالي بالمجّان".

غير أنّه إذا ما تدفّقت كلّ هذه السلع الفائضة إلى السوق ولم يَغْدُ العمال (في دورهم كمستهلكين) أكثر غنىً من ذي قبل، فسوف يبقى لدى الرأسمالي كومة هائلة من المنتجات غير المُباعة. فما العمل في مثل هذه الحالة؟ لقد سبق لماركس أنْ لفت الانتباه في **البيان الشيوعي** عام 1848 إلى "الأزمات التجارية التي تعمل بتكرّرها الدوري على وضع وجود المجتمع البرجوازي برمّته على المحكّ. ففي هذه الأزمات يُدَمَّر دورياً ليس قَدْرٌ كبير من المنتجات الموجودة وحسب، بل قَدْرٌ كبير أيضاً من قوى الإنتاج التي سَبَق خلقها. وفي هذه الأزمات يندلع وباء - هو وباء فرط الإنتاج - الذي كان يبدو، في جميع العهود السابقة، ضَرْباً من السخافة المنافية للعقل". ورأى ماركس أنَّ شروط المجتمع البرجوازي هي ببساطة أضيق من أن تستوعب الثروة التي خلقتها هي ذاتها. ولذلك يكون أمام الرأسمالية سبيلان للتغلّب على هذه المشكلة: "بتدمير كتلة كبيرة من قوى الإنتاج ذلك التدمير المفروض من جهة أولى؛ وبفتح أسواق جديدة واستغلال الأسواق القديمة مزيداً من الاستغلال الشامل من جهة ثانية، أي بتمهيد السبيل أمام مزيدٍ من الأزمات الشديدة والمدمِّرة، وبالحدّ من الوسائل التي يمكن بواسطتها منع نشوب الأزمات".

تلك هي دورة "الازدهار والإفلاس" التي تكافح الحكومات منذ ذلك الحين للفرار منها. وبحسب ماركس فإنَّ لا مجال لهذا الفرار

ما دامت الرأسمالية سائدة: فإيقاع التوسّع والانحسار الشبيه بإيقاع المدّ والجزر هو جزء لا يتجزّأ من هذا النظام الذي ينطوي على ميل طبيعي إلى الإنتاج الفائض. ويقول ماركس في المجلّد الثالث من **رأس المال**: "إنّ العقبة الفعلية أمام الإنتاج الرأسمالي هي رأس المال ذاته". فحين يستند الحفاظ على قيمة رأس المال إلى نزع ملكية جماهير الشعب وإفقارها، لا بدّ أن يدخل ذلك على الدوام في صراعٍ مع الدافع المتزامن الذي يدفع رأس المال باتجاه توسيع الإنتاجية غير المحدود والذي لا يقيّده أي قيد. "وعلى الدوام يبقى السبب الأخير لجميع الأزمات الفعلية هو الفقر واستهلاك الجماهير الضيّق بالمقارنة مع ميل الإنتاج الرأسمالي إلى تطوير القوى المنتجة بطريقةٍ لا يحدّها سوى قدرة الاستهلاك المطلقة التي يتّسم بها المجتمع بأكمله".

هكذا تكون الرأسمالية مهدَّدةً بأذيّةٍ قاتلة تُنْزِلها بها أسلحتها هي ذاتها. ورأى ماركس بعد إخفاق انتفاضات العام 1848 أنَّ من غير الممكن قيام ثورة جديدة "إلاّ كعاقبةٍ لأزمة (اقتصادية) جديدة"، وظلَّ منذ ذلك الحين ينتظر وصول الجائحة على أحرٍّ من الجمر. وفي عيد الميلاد عام 1851 تنبَّأ بأنّها "لا بدَّ أن تنشب في الخريف القادم على أبعد تقدير... وإني لَمُقْتَنِعٌ أكثر من أيّ وقتٍ مضى بأنّه لن تكون هنالك ثورة جدّيّة إنْ لم تكن هنالك أزمة تجارية". وكان كلُّ اضطراب في الأسواق أو تسارع في حالات الإفلاس يفضي

بماركس إلى تنبّؤات بهيجة مماثلة. "وعلى رأس ذلك ثمّة الأزمة التجارية التي تلوح أقرب فأقرب والتي ظهرت أعراضها الباكرة على كلّ يد. Les choses marchent [أمور متعلقة بالتجارة] (1852). لا بدّ للأوضاع الراهنة... كما أرى أن تفضي سريعاً إلى زلزال" (1853). وكان فريدريك إنجلز، عميل ماركس داخل قلعة الرأسمالية، لا يني يعزّز توقّعات هذا الأخير، وقد أعلمه في العام 1856 أنّ السنة التالية سوف تشهد "يوماً من الغضب لم يُرَ له مثيل من قَبْل: فصناعة أوروبا بأجمعها في حالةٍ من الخراب، والأسواق برمّتها متخمة بمخزونها من البضائع... والطبقات المالكة جميعاً في ورطة، إفلاسٌ البرجوازية الكامل، حربٌ وتبذير إلى آخر حدّ". وفي شتاء 1857- 1858، راح ماركس يعمل بكلّ ما أوتي من قوةٍ، كما رأينا، على دفاتر ملاحظاته الاقتصادية التي غدت كتاب الأسس "لكي يوضح الخطوط العامة على الأقلّ قبل الطوفان". كما عاد إلى الموضوعة ذاتها في تذييلٍ للطبعة الثانية من المجلّد الأول من رأس المال (1873)، كتبه دفاعاً عن أسلوبه الديالكتيكي:

> **(الديالكتيك) في شكله العقلاني هو فضيحةٌ وشنْعة للبرجوازية والعقائديين الناطقين باسمها، لأنّه ينطوي في فهمه الإيجابي لما هو قائم على ما يمثّل في الوقت ذاته اعترافاً بنفيه، وهلاكه المحتوم... وحقيقة أنّ حركة المجتمع الرأسمالي ممتلئة**

بالتناقضات تتجلّى على نحوٍ لافت للبرجوازي العملي من خلال تقلبات الدورة المتكررة التي تمرّ بها الصناعة الحديثة، والتي تشكّل الأزمة العامة ذروتها. تلك الأزمة تدنو من جديد...

وحين تصل تلك الأزمة، أضاف ماركس، فإنّ شدّتها وشمولها سوف "تُقْحِمُ الديالكتيك حتى في رؤوس محدثي النعمة في الإمبراطورية البروسية-الألمانية المقدّسة الجديدة".

أمَلٌ سُدىً: فحتى بعد ما يقارب القرن ونصف القرن، لا يزال استخدام ماركس للديالكتيك في **رأس المال** محلّ جدال ساخن. فقد استمدّ ماركس هذا المنهج من دراسته الباكرة لهيغل، الذي عَمِل على الجمع بين كثير من أشكال الديالكتيك السابقة – من متناقضات زينون إلى النقد الكانطي- وتوليفها فيما يمكن اختصاره على أفضل وجه بأنّه سيرورة العقل المولّد لذاته. وقد دعا هيغل نفسه هذا الديالكتيك بأنّه "فَهْمُ الأضداد في وحدتها أو التقاط الإيجابي في السلبيّ"، ومطاردة التناقضات واندماجها في أفكار جديدة أكمل. فكلُّ فكرة هي نتاج طور أقلّ تطوراً بين أطوار تلك الفكرة، لكنها تنطوي في داخلها على بذرةِ فكرةٍ متقدّمةٍ أكثر.

وعلاقة هذا بتصوّر ماركس للتقدّم الاقتصادي هي علاقةٌ واضحةٌ بما فيه الكفاية، مع أنَّ هيغل، الذي كان مثالياً وليس مادياً،

كان ليحتجّ حتماً على ما تعرّضت له تقنيّته من عملية قَلْب. فالعالم الفعلي، عند هيغل، ليس سوى تجلٍّ لـ "الفكرة"، أمّا عند ماركس فليست الفكرة سوى العالم الماديّ منعكساً في العقل البشري ومُتَرْجَماً إلى أشكالٍ من الفكر. يقول ماركس: "ديالكتيك هيغل هو الشكل الأساسي لكلّ ديالكتيك. إنّما فقط بعد أن يُجَرَّد من شكله الملتبس الصوفيّ، وهذا على وجه التحديد ما يميّز منهجي". ويتذكّر ماركس في تذييل العام 1873 أنّه انتقد الجانب الصوفيّ في ديالكتيك هيغل قبل ما يقارب الثلاثين عاماً، وكان لا يزال الزيّ الرائج في ذلك الحين.

> **ولكن حين كنتُ أعملُ على المجلد الأول من رأس المال، راح أولئك المقلّدون المتغطرسون التافهون، من ذوي الطبع الرديء الذين يكثرون الكلام الآن في الدوائر الألمانية المتعلّمة، يجدون متعةً في معاملة هيغل... كما لو أنّه "كلب نافقٌ". ولذلك جاهرتُ بأنني تلميذٌ لذلك المفكّر الجبّار، بل عمدت، في هذا الموضع أو ذاك من الفصل الخاص بنظرية القيمة، إلى مغازلة طريقته الخاصة في التعبير.**

غير أنَّ هذه المغازلات الديالكتيكية كانت لها قيمة استعمالية مفرطة، وكان ماركس يعلم ذلك. فبعد كتابته مقالةً عن التمرّد الهندي في العام 1857، أشار فيه إلى أنَّ البريطانيين سوف يبدؤون

انسحابهم ما إنْ يبدأ موسم الأمطار، اعترف لإنجلز، قائلاً: "لعلّي أتحامق وأجعلُ من نفسي سخريةً للآخرين. غير أنَّ بمقدور المرء على الدوام أن يخرج من ذلك الوضع بقليلٍ من الديالكتيك. ولقد صُغْتُ أطروحتي، بالطبع، بحيث تكون صائبةً في الحالتين". وحين يُسْتَخْدَم الديالكتيك على هذا النحو، فإنّه يعني ألاّ يعترف المرء قطّ بأنّه على خطأ.

حتى النبوءة التي تبدو واضحةً بلا لَبْس في **رأس المال** - أفول الرأسمالية الوشيك - يمكن هكذا أن تروغ من الهجوم النقدي الذي يشنّه من يسعون لإثبات زيفها. ويؤكّد ماركس، في خاتمة المجلد الأول من **رأس المال**، أنَّ التنافس بين الرأسماليين يركّز الإنتاج في وحداتٍ أكبر باطّراد، تزيد من شدّة اضطهاد العمل واستغلاله، "غير أنّ ذلك يترافق أيضاً مع تنامي عصيان الطبقة العاملة، تلك الطبقة التي لا تني تتزايد عدداً، وانضباطاً، ووحدةً، وتنظيماً بفعل آلية سيرورة الإنتاج الرأسمالي ذاتها... إنّ ناقوس الملكية الخاصة الرأسمالية يُقْرَع". ومعظم القرّاء يستخلصون من هذا أنَّ ماركس كان يحسب أنّ الرأسمالية راقدةٌ أصلاً على فراش الموت، وهو استخلاص منطقي بالنظر إلى ذلك الطّرب القياميّ الذي كان يحيّي به كلّ أزمة مالية جديدة. "لا بدّ للأوضاع الحالية... كما أرى أن تفضي سريعاً إلى زلزال". غير أنَّ من المدهش أن يطرح ماركس، من بين البشر جميعاً، مثل هذا الافتراض. فوصفه أطوار

الإنتاج الاقتصادي التاريخية المختلفة– البدائيّ، والمشاعيّ، والقديم، والإقطاعي، والرأسمالي– يلحظ أنّ كلّ حقبةٍ من هذه الحقب دامت قروناً كثيرة. بل آلفيات في بعض الأحيان، قبل أن تخلي المكان لوريثتها. ويعترف ماركس بأنّ الرأسمالية البرجوازية هي أشدّ دينامية وقوّة من أيّ أسلوب سبقها: فقد كتب في **البيان الشيوعي** أنّها "اجترحت عجائب تتخطّى بكثير الإهرامات المصرية، والأقنية الرومانية والكاتدرائيات الغوطية: وقامت بحملات تضع في الظلّ كلّ خروجٍ سابقٍ قامت به الأمم وكلّ حربٍ صليبيةٍ سابقة". فكيف أمكن لماركس، إذاً، أن يقتنع بأنّ هذه القوة المرعبة سوف تؤول إلى الإخفاق بعد قرنٍ أو اثنين؟

لعلّه لم يقتنع. فالمجلّد الأول من **رأس المال** ربما يكون قد بدا على أنّه ناقوس نعي الرأسمالية. لكننا نجد في الفصل الأخير من المجلد الثاني "عرضاً تخطيطياً" لحساباتٍ افتراضية تقدّم نموذجاً اقتصادياً لاقتصادٍ رأسمالي ينمو بثبات دون أزمات متكررة ويتمكن نظرياً من الاستمرار إلى ما لا نهاية. ومع أنّ ماركس كان يتوق إلى انهيار الرأسمالية ونهاية الاستغلال – وهو توقٌ كان يتفجّر في بعض الأحيان في نبوءاتٍ قيامية مروّعة– إلاّ أنّ قوة بلاغته تخفّ وتدقّ حين يدرس المرء عمله ككلّ. وغالباً ما صُوِّرَ ماركس على أنّه ذلك الحتميّ الميكانيكي الذي رأى العالم محكوماً بقوانين حديدية وعواقب لا مفرّ منها، لكنّ ذلك ليس سوى كاريكاتور لماركس،

صحيحٌ أنّه زعم في **البيان الشيوعي** أنَّ سقوط البرجوازية وانتصار البروليتاريا "حتميان على حدٍّ سواء": غير أنّه أضاف، في **الثامن عشر من بروميير لوي بونابرت**، أنَّ "البشر يصنعون تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه على هواهم؛ لا يصنعونه في ظروفٍ يختارونها بأنفسهم، بل في ظروفٍ يواجهونها مباشرةً، تكون متعيّنةً وموروثة من الماضي".

ويَعِدُ التصدير الأصلي لـ **رأس المال** برسم الخطوط العريضة "لقوانين الإنتاج الرأسمالي الطبيعية... التي تفعل فعلها بضرورةٍ حديدية". غير أنَّ ماركس يعلم، بوصفه طالباً سابقاً درس الحقوق، أنّ مجرّد وجود قانون ضدّ السرقة، على سبيل المثال، لا يعني وَضْعَ حدٍّ لكلّ لصوصيّة. وهذا واضحٌ على نحوٍ خاص في إحدى صياغاته الأشدّ إثارةً للجدال. ما يُدّعى قانون هبوط معدّل الربح.

والفكرة التي ترى أنّ معدّل الربح يهبط مع تطوّر الاقتصاد هي فكرة شائعة لدى جميع الاقتصاديين الكلاسيكيين، بمن فيهم آدم سميث وديفيد ريكاردو، مع أنّهم يختلفون على السبب الذي يقف وراء ذلك. فسميث يعزو ذلك إلى تضاؤل فرص الربح؛ في حين يعتقد ريكاردو أنَّ عَرْض الأرض المتناهي والمحدود كفيل بأن يؤدّي إلى ارتفاع إيجاراتها، مما يحدّ من هوامش الربح. أمّا رواية ماركس التي يعرض خطوطها العامة في المجلد الثالث من **رأس المال**، فترى

أنَّ التنافس بين الصناعيين سوف يضطرّهم إلى توظيف المزيد في "رأس المال الثابت" (أي في المنشآت والآلات) مما يؤدّي تالياً إلى توظيفٍ أقلّ نسبياً في "رأس المال المتحوّل" (الأجور). فإذا ما كان العمل البشري، بحسب اعتقاد ماركس، هو مصدر القيمة التبادلية، فإنّ معدل الربح - إنْ لم يكن مجموعه الفعليّ- لا بدّ أن يهبط. "وهذا ما يبرهن على تلك الضرورة المنطقية التي مفادها أنّ معدّل القيمة الزائدة المتوسّط لا بدّ أن يعبّر عن نفسه في تطوّره من خلال هبوط معدّل الربح العام".

ولقد تعرّض هذا التأكيد الجريء، غير المُثْبَت بالدليل، لكثير من الهجوم. ويبدو أنّ ماركس كان يتوقّع ذلك. فهو يحاول في الفصل التالي مباشرةً أن يجد الأسباب التي حالت عملياً دون هبوط معدّل الربح على النحو الذي تقتضيه نظريّته. وأحد هذه الأسباب هو التجارة الخارجية: ذلك أنّ الواردات رخيصة الإنتاج تتيح هامشاً أعلى من الربح. وثمّة أيضاً ذلك الأمر المألوف المتعلّق بالجيش الصناعيّ الاحتياطي: فزيادة الإنتاجية تجعل العمال فائضين عن الحاجة وتخفض الأجور. وبذلك تُبْطِئ الميل إلى إحلال الآلات باهظة الثمن محلّ العمل البشري. وباختصار، فإنّ " العمل يخضع لتأثيرات مضادة، تعترض أثر القانون العام وتُبْطِلُه، وتعطيه صفة مَيْلٍ ليس غير". والحال، أنّ "التأثيرات التي تُنْتِجُ ميلاً إلى هبوط معدّل الربح العام تُحْدِثُ هي ذاتها آثاراً مضادة أيضاً، تكبح

هذا الهبوط، وتعوّقه، وتشلّه جزئياً". مرّة أخرى، يبدو الأمر كما لو أنَّ ماركس يعيد صياغة أطروحاته بحيث تكون صائبةً في الحالتين.

ويمكن أن نجد تعديلات مماثلة في تناول ماركس تلك الأزمات المستوطنة المرتبطة بفرط الإنتاج (أو بانخفاض الاستهلاك، إذا ما نظرنا إليها من الجانب الآخر). فأولى عواقب الانحسار، حين يصل، هي هبوط هائل في الأسعار وانخفاض في رأس المال. غير أنّ ذلك يستعيد معدّل الربح. ويمكّن من استئناف الاستثمار والنمو. وكما يقول ماركس في المجلد الثالث من **رأس المال**: "إنَّ ركود الإنتاج الذي طَرَأَ يُعِدُّ الأرضية لتوسّعٍ لاحقٍ في الإنتاج، ضمن الحدود الرأسمالية. وبذلك نكون قد درنا الدورة بأكملها. وذلك الجزء من رأس المال الذي انخفضت قيمته بتوقّف وظيفته يستردّ قيمته السابقة. وبصرف النظر عن ذلك، ومع توسّع شروط الإنتاج، وتوسّع السوق، وزيادة الإنتاجية، فإنَّ دورة الآثام ذاتها تُدار مرّة أخرى". أفلا يمكن للمرء، إذاً، أن يعتبر هذه الارتعاشات الدورية مجرّد آليات للتصويب الذاتي، تضمن البقاء الدائم للنظام بدل أن تعجّل بسقوطه؟ فالرأسمالية، كما يقول ليون تروتسكي، "تعتاش على الأزمة والازدهار كما يعتاش الكائن البشري على الشهيق والزفير".

لا يوضح ماركس في أيّ موضعٍ من **رأس المال** لماذا أو كيف - فما بالك بمتى- سيدمّرُ النظامُ ذاته في النهاية. فهو يكتفي

بِعَرْضِ ذلك على أنّه قناعته: كلُّ هبوط يفضي إلى تركّز أعظم في رأس المال، وهذا الاحتكار يغدو قيداً على أسلوب الإنتاج إلى أن "يبلغ تمركز وسائل الإنتاج وتشريك العمل في النهاية حدّاً يغدوان عنده متعارضين مع إهابهما الرأسمالي. فيتمزّق هذا الإهاب إرباً... نازعُو الملكية تُنْزَع ملكيتهم". وبهذا المنظور السعيد ينهي ماركس المجلد الأول (وهو المجلد الوحيد المكتمل) من **رأس المال**.

مكتملٌ. أجل، إنّما تقريباً وحسب. فبعد خاتمته المدوّية، قرر ماركس أن يضيف قَفْلَةً ساخرة على هيئة فصل عن "نظرية الاستعمار الحديثة". أراد له أن يبيّن ما يحصل إذا ما تحرّر العمال المأجورون من أغلالهم. ففي بلدان مثل إنجلترا، أخضع النظام الرأسمالي لسطوته موارد الأمّة التي يراها الاقتصاديون جزءاً من النظام الطبيعي. لكن ماركس يلاحظ أنّ "الأمر مختلف في المستعمرات"، حيث يواجه السيد **مالك النقد** عقبة المستوطنين من الطبقة العاملة الذين يستخدمون عملهم لإثراء أنفسهم بدلاً من إثراء الرأسمالي. (كان إنجلز قد كتب لماركس في أيلول من العام 1851، بعد اكتشاف الذهب في جنوب أستراليا: "شيء باهر. البريطانيون سوف يُطْرَدون وولايات القتلة، واللصوص، والمغتصبين، والنّشالين المتحدة سوف تُجْفِلُ العالم بكشفها عن تلك العجائب التي يمكن أن تنجزها دولةٌ مكوّنةٌ من أنذال لا يضعون أيّ براقع).

والحكاية الأساسية في هذا الفصل الأخير هي حكاية السيد بيل التراجيكوميدية، حيث يأخذ معه من إنجلترا إلى منطقة نهر سوان في أستراليا الغربية 50000 من الجنيهات الاسترلينية عداً ونقداً و 3000 من رجال الطبقة العاملة ونسائها وأطفالها. لكنه يُغْفِل شيئاً واحداً: الحاجة لأن يُبقي عمّالهُ منفصلين عن وسائل الإنتاج. فَهُم، إذْ يجدون الأرض متاحةً بالمجّان في هذه المنطة الخالية يتخلّون عن ربّ عملهم، يتركونه حتى من غير خادم يُعِدُّ فراشه أو يُحْضِر له الماء من النهر. يقول ماركس: "يا لتعاسة السيد بيل الذي احتاط لكلّ شيء ما عدا تصدير علاقات الإنتاج الإنجليزية إلى نهر سوان!".

وجد ماركس قصة بيل هذه في كتاب لرجل الأعمال إدوارد غيبن ويكفيلد، الذي أوردها كمثال على العواقب الرهيبة التي تترتّب على الاستعمار العفوي غير المُنَظّم. فقد اشتكى ويكفيلد من أنّ "قَدْراً هائلاً من رأس المال. والبذور، والأدوات، والماشية قد فني بسبب الحاجة إلى العمال الذين يستخدمونه. ....ولم يحتفظ أحد من المستوطنين بأيّ رأس مال يزيد على ما يمكن أن يستخدمه بيديه". وفي الولايات الشمالية من أميركا، أيضاً، "يمكن الشكّ فيما إذا كان ما يعادل عشر السكّان تنطبق عليهم تسمية العمّال المأجورين". فالعمال، حين سنحت لهم الفرصة، كفّوا عن كونهم عمّالاً بالأجرة وغدوا منتجين مستقلّين، بل ربما "منافسين

لأسيادهم السابقين في سوق العمل". وبغية مداواة هذه الحال، دعا ويكفيلد إلى "استعمار منهجيّ"، على نحوٍ يضمن توفير العمال التابعين والخاضعين، الذين لا يختلفون في وظيفتهم ومكانتهم عن العبيد. وهذا ما يمكن تحقيقه بسهولة باصطناع سعر باهظ للأرض العذراء، ووضعها أبعد من متناول ذوي الدخل العادي وإجبارهم بذلك على العمل لدى السيد بيل المسكين.

ويمكن لنا أن نرى لماذا سُرَّ ماركس كثيراً بهذا الاعتراف الصريح بمتطلّبات الرأسمالية. وهو يقول: "لا تكمن مزية إ. غ ويكفيلد العظيمة في أنّه اكتشف شيئاً جديداً عن المستعمرات، بل في أنّه اكتشف في المستعمرات حقيقة العلاقات الرأسمالية في البلد الأمّ... أنَّ الشرط الأساسي لأسلوب الإنتاج والتراكم الرأسماليين، وتالياً للملكية الخاصة الرأسمالية أيضاً، هو إبْطال تلك الملكية الخاصة التي تقوم على عمل الفرد نفسه: وبعبارة أخرى، نَزْعُ ملكية العامل". وواقعةُ اختيار ماركس هذه الجملة كجملة أخيرة في الكتاب تفضي لنا بالكثير عن مقاصده كمؤلّف. فلو خَتَم بإهاباتٍ تتمزّق إرباً وبنازعين للملكية تُنْزَع ملكيّتهم، لربما أُخِذَ رأس المال على أنّه بصورةٍ أساسيةٍ ضَرْب من العمل النبوئيّ بشأن مصير الرأسمالية المحتوم. لكنه، عوضاً عن ذلك، يلتفت من جديدٍ إلى الضحايا وليس إلى المضطهِدين، فيتركنا مع إعادةِ صياغةٍ للموتيف المسيطر: مهما يكن مصير الرأسمالية، سواء

دامت قرناً أو ألفيةً من السنين. تبقى ذلك النظام الذي يعتمد على الاستغلال.

ها نحن قد عدنا من حيث بدأنا، في جحيمٍ أرضيٍّ يشبه طبعةً علْمانيةً من **جحيم** دانتي. "Vien retro a me, e lascia dir le genti" (ما الذي يهمّك فيما يتهامسه الناس هنا؟ اتبعني ودع الناس يتقوّلون). هذا ما يقوله فيرجيل لدانتي في النشيد الخامس من **المطهر**. ولأنّ ماركس يفتقر إلى فيرجيل يهديه ويرشده، فإنّه يعدّل النبرة في تصديره المجلد الأول من رأس المال لكي ينبّه إلى أنّه لن يقدّم أيّ تنازل لتحيّزات الآخرين: "فشعاري الآن، كما كان الحال على الدوام، هو قول الفلورنسيّ العظيم: Segui il tuo corso, e lascia dir genti (امْضِ في سبيلك ودَع الناس يتقوّلون). وإذاً، فإنّ الكتاب مُتَصوَّر، منذ البداية، على أنّه تَرَدٍّ صوب المهاوي الأدنى. وهو ينقل لنا حسّاً بالمكان والحركة مفعماً بالحيوية حتى في خِضَمِّ تجريداته النظرية المعقّدة:

> **دعونا، إذاً، نغادر منطقة السوق الصاخبة هذه، حيث يتمّ كلُّ ما يجري على مرأى من الجميع، وحيث يبدو كلّ شيء مكشوفاً وفوق الطاولة. ونتبع مالك النقد ومالك قوة العمل إلى مراكز الإنتاج الخفيَة، لنجتاز عتَبَة بوابةٍ كُتِبَ فوقها: "ممنوع الدخول لمن ليس له عمل". وهنا سوف نكتشف، ليس كيف يقومُ رأسُ المال**

بالإنتاج وحسب، بل كيف يُنتَجُ هو ذاته أيضاً. وسوف نكتشف أخيراً سرَّ صناعة القيمة الزائدة.

وغالباً ما يستحضر ماركس السوالف الأدبية لمثل هذه المرحلة كلّما تقدّم به المسير. وإذْ يصف مصانع الكبريت الإنجليزية، حيث نصف العمال من اليافعين (بعضهم في السادسة من العمر) والظروف مرعبةٌ لدرجة أنّ "ذلك الجزء الأبأس من الطبقة العاملة، والأرامل على حافة المجاعة، وحدهم من يلقون أطفالهم فيها"، فإنّه يقول:

مع يوم عمل يتراوح من 12 إلى 14 ساعة، ومع العمل الليلي، وأوقات الطعام غير المنتظمة، والوجبات التي غالباً ما يتمّ تناولها في قاعات العمل ذاتها. ملوّثة بالفوسفور. كان دانتي ليجد أنّ في هذه الصناعة ما يفوق أسوأ صنوف الرعب في جحيمه.

وثمة ضروب أخرى من الجحيم توفّر للوحةِ الواقع العيانيّ التي يرسمها ماركس مزيداً من الزينة والزخرفة:

من بين حشد العمال من كلّ لون وشاكلة، وكلّ مهنة، وكلّ عمر وجنس، الذين يتدافعون حولنا بإلحاح يفوق إلحاح أرواح الموتى حول يوليسيز، ونرى عليهم بطرفة عين، دون الرجوع إلى الكتب الزرقاء التي

يتأبطونها،علامات العمل المفرط، دعونا ننتقي شخصين آخرين، يثبت التباين اللافت بينهما أنّ جميع البشر سواء في حضرة رأس المال: خياطة للسيدات وحداد.

وهذا إلماعٌ إلى قصّة ماري آن ووكلي، تلك الفتاة التي ماتت في العشرين من عمرها "من فرط العمل وحده" بعد أن عملت لأكثر من ستّ وعشرين ساعة دون انقطاع في صنع أزياءٍ لضيوف حفلةٍ راقصةٍ أقامتها أميرة ويلز في العام 1863. أمّا ربّة عملها (وهي "سيدة تحمل الاسم اللطيف إليس"، كما يلاحظ ماركس ساخراً) فقد أفزعها أن تجد الفتاة ميّتةً قبل أن تنهي القطعة التي كانت تخيطها.

ولو أنَّ هذه الشخصيات لم تكن موجودة، لربما كان على تشارلز ديكنز أن يخترعها. وثمّة مادّة ديكنزية في قَدْرٍ كبيرٍ من **رأس المال**. وماركس يقدّم التحية صريحةً كلما لزم الأمر لهذا الكاتب الذي يحبّه. وإليكم، على سبيل المثال، كيف يصفع ماركس أولئك المبرّرين البرجوازيين الذين يزعمون أنَّ انتقاداته استخدامات معيّنة للتكنولوجيا تنمّ على أنّه عدوّ التقدم الاجتماعي الذي يريد للآلات أن لا تُسْتَخْدَم البتّة:

تلك بالضبط حجّة بِلْ سايكس، السفّاح الشهير. "أيها

السـادة المحلفـون. لا شكَ أنَ هذا الوكـيل التـجـاريَ المتـجـوِّل قـد ذُبِحَ. لكن الذَنب ليس ذنبي، بل ذنب السكين. أنلغي استخدام السكين بسبب هذه الحادثة المزعجـة العـابرة؟ فكّروا فـقط كـيف سـتكون حـال الزراعة والتجارة من غير السكين؟ أليست مـفيدة في الجراحة كما هي بارعة في التشريح؟ أليست ذلك المعين الطائع على مائدة الاحتفال؟ إذا ألغيتم السكين، فإنكم تعيدوننا إلى مهاوي البربرية".

وبالطبع، فإنَّ بيل سايكس لا يلقي مثل هذه الخطبة في **أوليفر تويست**: فهذا استقراء ماركس الهجائيّ الساخر. وكان يقول في بعض الأحيان، وهو يشير إلى الكتب على رفوفه: "أولئك عبيدي، وينبغي أن يقوموا على خدمتي كما أشتهي". فمهمة قوة العمل المجّانيّة هذه كانت تتمثّل في أن توفّر له المادة الخام التي يمكن عندئذٍ أن يشكّلها بحسب أغراضه. وقد كتب صحفيٌّ من **الشيكاغو تريبيون** زار ماركس عام 1878 وأجرى معه لقاءً: "لا يجري حديث ماركس على غرارٍ واحد، بل يتنوّع تنوّع الكتب على رفوف مكتبته. ويمكن عموماً أن نحكم على رجلٍ من خلال الكتب التي يقرأها، وهذا ما يمكنكم أن تفعلوه باستنتاجاتكم الخاصة حين أقول لكم إنّ نظرةً عابرةً قد كشفت عن شكسبير، وديكنز، وثاكري، وموليير، وراسين، وبيكون، وغوته، وفولتير، وباين؛ وعن كتبٍ زرقاء إنجليزية،

وأميركية، وفرنسية: وعن أعمالٍ سياسية وفلسفية بالروسية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، الخ، الخ . إلى آخره، بالفعل: ففي العام 1976 وضع البروفيسور س.س. براور كتاباً في 450 صفحة مكرّساً بأكمله لإحالات ماركس الأدبية. ففي المجلّد الأوّل من **رأس المال** نجد مقبوسات من **الكتاب المقدس**، وشكسبير، وغوته، وملِتون، وفولتير، وهوميروس، وبلزاك، ودانتي، وشيللر، وسوفوكليس، وأفلاطون، وثيوسيديدس، وزينوفون، وديفو، وسرفانتس، ودرايدن، وهاينه، وفيرجيل، وجوفينال، وهوراس، وتوماس مور، وصموئيل بَتْلِر، فضلاً عن إلماعاتٍ إلى قصص الرعب التي تحكي عن المستذئبين ومصّاصيّ الدماء، والقصص الشعبية الألمانية، والروايات الرومانتيكية الإنجليزية، والأغاني الشعبية والعادية والمقفّاة، وصنوف الميلودراما والهزليّات، والأساطير، والأقوال المأثورة.

ولكن، ماذا عن مكانة **رأس المال** الأدبية هو ذاته؟ فماركس كان يعلم أنّ الأمور لا تتمّ بالواسطة، وبالاقتصار على عَرْضِ زهور الآخرين. وهو في المجلد الأول من **رأس المال** يهزأ بأولئك الاقتصاديين الذين "يخفون تحت استعراض تبحّرهم الأدبي - التاريخي، أو بإضافتهم مواد خارجية، شعورهم بالعجز العلمي وإحساسهم المخيف بأنّ عليهم أن يعلّموا الآخرين ما يشعرون هم أنفسهم بأنّه موضوع غريب عليهم في حقيقة الأمر". ولعلّ خشية ماركس من أن يرتكب هو نفسه هذا الإثم هي التي تفسّر اعترافه

المؤلم، في تذييل الطبعة الثانية، بأنَّ "ما من أحد يمكن أن يشعر بنواقص رأس المال الأدبية بالقوة التي أشعر بها". غير أنّه يبقى مدهشاً، على الرغم من ذلك، أنّ قلّة قليلة وحسب هي التي اعتبرت هذا الكتاب عملاً من أعمال الأدب. فقد فرّخ رأس المال عدداً لا يحصى من النصوص التي تحلّل نظرية ماركس في القيمة التي تقوم على العمل أو قانونه في هبوط معدّل الربح، لكنَّ حفنةً من النقّاد وحسب هي التي أَوْلَت اهتماماً جدّياً طموح ماركس الذي أعلن عنه - في رسائل عديدة لإنجلز- لأن يقدّم عملاً من أعمال الفنّ.

ربما كان أحد الموانع أنَّ بنية **رأس المال** بطبقاتها المتعددة لا تعنو لذلك التصنيف السهل. حيث تمكن قراءة هذا الكتاب على أنّه رواية غوطية يستعبدُ أبطالَها ويستنزفهم وحشٌ خلقوه بأنفسهم ("رأس المال الذي يأتي إلى العالم ملوثاً من رأسه إلى أخمص قدميه بالدماء التي تنزّ من جميع مسامه")؛ أو على أنّه ميلودراما فيكتورية (بل إنَّ س. إ. هَيّمان، في دراسته المنشورة عام 1962، **الركام المختلط: داروين، ماركس، فريزر، وفرويد بوصفهم كتّاباً مبدعين**، يقترح عنواناً مناسباً لهذه الدراما: "ارتهانٌ قوة العمل الذي لا يُرَدّ")؛ أو على أنّه هزلية ساخرة سوداء (ففي فضح زيف "الواقع الشبحيّ" الذي تتّسم به السلعة بغية تبيان الفارق بين المظهر البطولي والواقع المُخزي، يستخدم ماركس إحدى الطرائق

الكلاسيكية التي تستخدمها الكوميديا، حيث تتم تعرية الفارس الأنيق من دروعه ليتكشّف في سراويله التحتانية عن رجلٍ قصير وبدين)؛ أو على أنّه تراجيديا إغريقية ("فـ"الفاعلون في إعادة ماركس تلاوة التاريخ الإنساني واقعون، مثل أوديب، في قبضة ضرورة لا تلين تتجلّى وتتكشّف مهما فعلوا"، بحسب سي. فرانكل في كتاب **ماركس والفكر العلمي الحديث**. "ومن ثمّ فإنّ كلّ ما يربطهم بهذا القدر هو عماهم التراجيدي، أفكارهم الثابتة، التي تحول دون رؤيتهم الوقائع إلاّ متأخّرين")؛ أو ربما على أنّها يوتوبيا هجائية مثل بلاد الهوينهمز في **رحلات غاليفر**، حيث الأشياء جميعاً تبعث على السرور ما عدا الإنسان الشرير: ففي رواية ماركس عن المجتمع الرأسمالي، كما في الفردوس الزائف الذي أقامته الجياد في عمل جوناثان سويفت، تُخَلَق الجنّة الزائفة عبر الحطّ من قيمة البشر العاديين إلى منزلة الياهو العاجزين والمغتربين.

ولكي يُنْصِف منطقَ الرأسمالية المشوَّش، فإنّ نصّ ماركس مُفْعَمٌ بالسخرية، على الرغم من أنّ هذه السخرية قد فاتت معظم الباحثين خلال الـ 140 سنة الماضية. ويشكّل الناقد الأميركي إدموند ويلسون واحداً من الاستثناءات بهذا الصدد. فقد رأى في كتابه **إلى محطة فنلندا: دراسة في كتابة التاريخ وتمثيله** (1940) أنّ قيمة تجريدات ماركس – رقص السلع، والقطبة المتصالبة

الحمقاء التي تتّصف بها القيمة- هي قيمة تقوم على السخرية في المقام الأول، تلك السخرية التي تبرز إذْ توضع بجوار مشاهد البؤس والفحش المروِّعة والموثّقة جيداً مما تخلقه القوانين الرأسمالية عملياً وفي الممارسة. ويعتبر ولسون كتاب رأس المال ضرباً من المحاكاة التهكّمية الساخرة للاقتصاديين الكلاسيكيين، "فما إنْ نقرأه حتى تكفّ الأعمال التقليدية في الاقتصاد عن الظهور لنا كما كانت تظهر من قبل: حيث يغدو بمقدورنا على الدوام أن نرى من خلال حججها وأرقامها وقائع العلاقات البشرية العارية الصريحة التي يتمثّل غرض تلك الأعمال أو مفعولها في إلقاء قناعٍ عليها". ويعتقد ولسون أنّ ما من أحد سبق له أن امتلك على هذا النحو المفرط مثل هذا التبصّر السيكولوجي في قدرة الطبيعة البشرية اللامتناهية على البقاء نسّاءةً ولا مبالية إزاء الآلام التي ننزلها بالآخرين حين تسنح لنا فرصة أن ننتزع منهم لأنفسنا شيئاً ما. "في معالجته هذه الموضوعة، بات ماركس واحداً من أعظم أسياد الهجاء. ومن المؤكّد أنّ ماركس هو أعظم هجّاء منذ سويفت، ولديه قَدْرٌ كبير ممّا يقاسمه إيّاه".

تبدو هذه الصفة مغالية جداً أو لا تُصَدَّق مطلقاً مما قد يجعلها بحاجة إلى أدلّة تدعمها. ولذلك دعونا نلتفت إلى **نظريات فضل القيمة**، أو ما دُعيَ بـ **المجلد الرابع من رأس المال** ونُشر بعد وفاته، حيث يعيد ماركس تلاوة المحاولات المتعددة التي قام بها

الاقتصاديون الكلاسيكيون للتمييز بين العمل "المُنْتِج" والعمل "غير المُنْتِج". وقد أدْرَجَ آدم سميث في هذا الصنف الأخير كلاً من "رجال الكنيسة، والمحامين، والأطباء، ورجال الأدب بأنواعهم؛ والممثلين، والمهرّجين، والموسيقيين، ومغنّي الأوبرا، وراقصيها، الخ". وجميعهم "يعتاشون على جزء من النتاج السنوي لكدّ بشر آخرين". ولكن هل التمييز بمثل هذا الوضوح وهذه البساطة حقّاً؟ يشير ماركس إلى أنَّ كلّ مهنة يمكن تصوّرها يمكن أن تكون مُنْتِجةً، ويشرع في محاولة لإثبات ذلك من خلال مثال يبدو مضحكاً وسخيفاً:

> **يُنْتِج الفيلسوف أفكاراً، والشاعر قصائد، ورجل الدين عِظاتٍ، والأستاذ الجامعيّ كُتُباً وهلمجرا. وينتج المجرم جرائم. وإذا أمعنا النظر في الصلة بين هذا الفرع الأخير من الإنتاج والمجتمع ككلّ، فسوف نَطرح عنّا كثيراً من ضروب التحيّز. فالمجرم لا ينتج الجرائم وحسب بل القانون الجنائي، ومعه الأستاذ الجامعي الذي يلقي محاضرات في القانون الجنائي وعلاوةً عليها الكتاب الأكيد الذي يطرح فيه هذا الأستاذ الجامعيّ محاضراته في سوق "السلع" العام...**

بل إنَّ المجرم ينتج الشرطة برمّتها والقضاء الجنائي بأكمله، بحاكميه، وقضاته، وجلاّديه، ومُحلَّفيه، إلخ، وجميع خطوط الأعمال المختلفة هذه، والتي تشكّل بالمثل كثيراً من أصناف التقسيم

الاجتماعي للعمل. تطوّر قدرات مختلفة يتمتّع بها الروح الإنساني، وتخلق حاجاتٍ جديدةً وسبلاً جديدةً لإرضائها. فقد أدّى التعذيب وحده إلى نشوء أشدّ الاختراعات الميكانيكية براعةً، واستخدم كثيراً من الحرفيين الأفاضل في إنتاج أدواته.

والمجرم يُنتج انطباعاً، أخلاقياً من ناحيةٍ وتراجيدياً من ناحيةٍ أخرى، بحسب الحالة. وبذلك يقدّم "خدمة" عبر إثارته مشاعر الجمهور الأخلاقية والجمالية. فهو لا ينتج كتباً في القانون الجنائي وحسب، ولا قوانين العقوبات ومعها التشريعات اللازمة في هذا المجال فقط، بل الفن أيضاً. والآداب الجميلة، والروايات، وحتى التراجيديات. الأمر الذي لا تبيّنه **الخطيئة** لمولنر **واللصوص** لشيللر وحسب، بل أيضاً **أوديب** لسوفكليس **وريتشارد الثالث** لشكسبير. (ولو كان ماركس يكتب اليوم، لأمكنه أن يضيف أنه من دون الجريمة لما كان هناك جون غريشام، ولا المفتش مورس، ولا توني سوبرانو، ولا جيمس بوند). والمجرم يكسر رتابة الحياة البرجوازية وأمنها اليومي، وهو يُبعدها بهذه الطريقة عن الركود. ويولّد ذلك التوتّر القلق والخفّة التي من دونها لتبلّد حافز التنافس ذاته...

يمكن أن نبيّن على نحوٍ مفصّل ما يتركه المجرم من آثار ومفاعيل على تطور القدرة الإنتاجية. فهل كانت الأقفال لتبلغ قطّ ما بلغته الآن من درجات الإتقان لو لم يكن هنالك لصوص؟ وهل كانت صناعة الأوراق

النقدية لتبلغ ما بلغته اليوم من الكمال لو لم يكن هنالك مزوّرون؟... وإذا ما تركنا عالم الجريمة الخاصة: فهل كانت السوق العالمية لتبرز إلى الوجود قطّ لولا الجريمة الوطنية؟ بل هل كانت لتَنْشَأ الأوطان ذاتها، ألم تكن شجرة الخطيئة في الوقت ذاته شجرة المعرفة منذ أيام آدم؟

يرى إدموند ولسون أنّ هذا يضاهي ذلك الاقتراح المتواضع الذي قدّمه سويفت لمداواة بؤس إيرلندا عبر إقناع الفقراء الجائعين بالتهام صغارهم الزائدين.

ولكن، في النهاية، حتى ولسون يُضيع الحبكة. فبعد بضع صفحات وحسب من تقريظ تبصّر ماركس السيكولوجي الحادّ ورفعه إلى مَجْمَع أبطال العبقرية الهجائية، يحتجّ على "فجاجة الحافز السيكولوجي الذي يشكّل أساساً لرؤية العالم عند ماركس" ويشكو من أنّ النظرية المُقَدَّمة في **رأس المال** هي "ببساطة، شأن الديالكتيك، من إبداع الميتافيزيقي الذي لم يتنازل قطّ أمام الاقتصاديّ في ماركس". وهذا يبدو شديد الشبه بأولئك الألمان الذين راجعوا المجلد الأول من **رأس المال** واتّهموا ماركس ب "السفسطة الهيغلية". وهي تهمة أسعده أن يقرّ بارتكابها، معترفاً أنّه قد غازل في **رأس المال** طريقة هيغل في التعبير. وضروب المغازلة الديالكتيكية التي أزعجت ولسون بهذا القَدْر هي جميعاً

مُجانسةٌ للسخرية التي أعجبته أشدّ الإعجاب: فكلتاهما تقنيتان تزيحان الواقع الظاهر بغية الكشف عن أسراره الأثيمة. وكما قال الفيلسوف الأميركي روبرت بول وولف في محاضرة عام 1984: إنّه لنوع غريب من الإطراء أن نصف كاتباً بأنّه أعظم هجّاء منذ سويفت، ثمّ نحكم على أرصن جهوده الفكرية بأنها ضرب من الميتافيزيقا غريبة الأطوار".

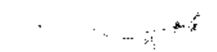
ما الصلة، إذاً، بين خطاب ماركس الأدبي الساخر ووصفه "الميتافيزيقي" للمجتمع البرجوازي؟ أو، كما يطرح وولف السؤال: "لماذا **توجّب على** ماركس أن يكتب كما كتب إذا ما كان يريد أن ينجز تلك المهمّات الفكرية التي وطّد العزم على إنجازها؟". لو أنه كان يرغب في إنتاج نصّ مباشر من نصوص الاقتصاد الكلاسيكي لكان بمقدوره أن يفعل ذلك، بل لقد فعله حقيقةً. وثمّة محاضرتان ألقاهما ماركس في حزيران من العام 1865، ونُشِرَتا لاحقاً بعنوان **القيمة والسعر والربح**. تقدّمان خلاصةً موجزة وواضحة لنظريّاته في السلع والعمل: "من يُنْتِجُ شيئاً لاستعماله الخاص المباشر، ولكي يستهلكه هو نفسه، يخلق **نتاجاً** وليس **سلعة**...

للسلعة قيمة، لأنّها **تبلورٌ للعمل الاجتماعي**... **السعر**، بحدّ ذاته، ليس سوى **تعبير نقديّ عن القيمة**... ما يبيعه العامل ليس **عمله** مباشرةً، بل **قوة عمله**، التي يعهد إلى الرأسمالي بالتصرّف بها مؤقّتاً..." وهلمجرا. ومهما تكن مزايا هاتين المحاضرتين

بوصفهما تحليلاً اقتصادياً، فإنَّ بمقدور أيّ طفل نبيه أن يفهمهما: فما من استعارات مُحْكَمةٍ أو ميتافيزيقا، وما من استطرادات مربكة أو شرودات فلسفية، وما من زخارف أو تنميقات أدبية. وإذاً ما الذي جعل **رأس المال**، الذي يغطي الأساس ذاته، يختلف تماماً من حيث أسلوبه؟ هل فقد ماركس فجأةً موهبة الكلام الواضح البسيط؟ من الواضح أن لا: ففي الوقت الذي ألقى فيه هاتين المحاضرتين كان أيضاً يكمل المجلّد الأول من **رأس المال**. كما يمكن أن نجد دليلاً على ذلك في واحد من القياسات القليلة جداً التي سمح لنفسه بإجرائها في **القيمة والسعر والربح**، حيث يشرح قناعته بأنَّ الأرباح تنشأ من بيع السلع بقيمتها "الفعلية" وليس، كما يمكن للمرء أن يفترض، من إضافة بعض الثمن. "قد يبدو هذا مناقضاً للملاحظة اليومية ومخالفاً لها"، كما يقول. "بيد أنَّ من المناقض أيضاً (لتلك الملاحظة اليومية) أنَّ الأرض تدور حول الشمس، وأنَّ الماء يتألّف من غازين قابلين للاشتعال. والحقيقة العلمية مناقضة على الدوام، حين نحكم عليها من خلال التجربة اليومية، التي لا تلتقط سوى طبيعة الأشياء الخادعة".

وتكمن وظيفة الاستعارة في دفعنا لأن ننظر إلى شيء ما من جديدٍ إذْ تنتقل خصائصه إلى شيء ما آخر، فيتحوّل المألوف إلى غريب أو العكس بالعكس. ولقد اتّكأ لودفيكو سيلفا، ناقد ماركس المكسيكي، على المعنى الأصلي لكلمة "استعارة"، وهو النقل، في

رؤيته أنّ الرأسمالية ذاتها هي استعارة، وسيرورة اغتراب تزيح الحياة من الذات إلى الموضوع، من القيمة الاستعمالية إلى القيمة التبادلية، من الإنساني إلى الوحشي. وفي مثل هذه القراءة، لا يعود الأسلوب الأدبي الذي يتبنّاه ماركس في **رأس المال** قشرة خارجية ملوّنة توضع فوق لوح العرض الاقتصادي الذي كان سيبدو منفّراً من غير ذلك، مثل مربّى الفاكهة فوق خبزة محمّصة قاسية؛ بل يغدو اللغة الملائمة الوحيدة التي يمكن التعبير من خلالها عن "طبيعة الأشياء الخادعة". ومشروعاً كيانياً (أنطولوجياً) لا يمكن تقييده بحدود وأعراف جنسٍ قائمٍ كالاقتصاد السياسي، أو الأنثروبولوجيا، أو التاريخ. وباختصار، فإنّ رأس المال هو عمل Sui generis (فذّ، نسيج وحده)، بكل ما للكلمة من معنى. فليس ثمّة ما يشبهه ولو من بعيد قبله ولا بعده. وربما كان ذلك هو السبب وراء ما لاقاه على الدوام من إهمالٍ أو إساءة تفسير.



الفصل الثالث

الحياة اللاحقة

بعد قرنٍ من نشر **رأس المال**، تفاخر رئيس الوزراء البريطاني هارولد ولسون بأنّه لم يقرأ قطّ هذا الكتاب. "لم أمْضِ أبعد من الصفحة الثانية، حيث يبلغ طول الحاشية ما يقارب صفحة كاملة. وشعرت أنّ جملتيّ المتن والحاشية التي تبلغ صفحة فوق ما أطيق". ويكفي أن نلقي نظرةً خاطفةً إلى المجلّد الأول من **رأس المال** لنكتشف أن ما يقوله هارولد ولسون هو ضرب من المبالغة الزائدة: فثمة بالفعل عدد من الحواشي في الصفحات الافتتاحية، لكن أيّاً منها لا يزيد على جمل قليلة. ومع ذلك، ربما كان ولسون ينطق بلسان كثير من القرّاء الآخرين الذين نفروا من قراءة **رأس المال** بسبب صعوبته المُتَخَيَّلة أو الفعلية.

وكان ماركس قد توقّع في تصديره ردّة الفعل هذه. "إنّ فهم الفصل الأول، خاصةً القسم الذي يشتمل على تحليلِ السلع،

سوف... يشكّل الصعوبة الأكبر. ولقد عمدتُ إلى تبسيط المقاطع المتعلقة بجوهر القيمة ومقدار القيمة قدر الإمكان". وأشار ماركس إلى أنَّ شكل القيمة أوّلي وبسيط جداً. "ومع ذلك، فقد حاول العقل البشري عبثاً على مدى أكثر من 2000 سنة أن ينفذ إلى سرّه... ولذلك، فإنَّ هذا المجلّد، باستثناء القسم الذي يتناول شكل القيمة، لا يمكن اتّهامه بالصعوبة. وأنا أفترض، بالطبع، قارئاً يرغب في أن يتعلّم شيئاً جديداً ومستعداً إذاً لأن يُعْمِلَ فكره".

لكن إنجلز نفسه لم يكن مقتنعاً بهذا. وقد حذّر ماركس، بينما كان الكتاب يُضْرَب على الآلة الكاتبة، من الخطأ الفادح المتمثّل في عدم إيضاح حججه النظرية بتقسيمها إلى أقسام أصغر بعناوين مستقلّة. "سوف يبدو الأمر أشبه بكتابٍ مدرسيّ، لكنَّ فهمه سوف يسهل كثيراً لدى طبقةٍ واسعةٍ من القرّاء. فالعامة، وحتى الباحثين، لم يعودوا معتادين مطلقاً على هذه الطريقة في التفكير، وعلى المرء أن يسهّل الأمر عليهم قدر الإمكان". ولقد أجرى ماركس بعض التغيير على التجارب الطباعية، لكن ذلك لم يكن أكثر من سَمْكَرةٍ هامشية. وتساءل إنجلز يائساً بعد رؤيته التجارب النهائية: "كيف أمكنك أن تترك بنية الكتاب **الخارجية** في شكلها الحاليّ! الفصل الرابع يقارب طوله 200 من الصفحات وليس فيه سوى أربعة أقسام فرعية... وعلاوةً على ذلك، فإنَّ تدفّق الأفكار لا تني تقطعه الإيضاحات، والنقطة التي تُوضَح لا تُلَخَّص قطّ بعد الإيضاح،

بحيث يغوص المرء إلى ما لانهاية من إيضاح نقطة إلى عرض نقطة أخرى. ذلك منهك على نحوٍ فظيع، ومُشوّش أيضاً".

وثمة معجبون آخرون وجدوا أعينهم تنفتح على وسعها وتجمد وهم يقارعون الفصول الأولى الغامضة. وقد كتب ماركس إلى لودفيغ كوغلمان، صديقه في هانوفر: "أرجو أن تتلطّف بالقول لزوجتك إنّ الفصول عن "يوم العمل"، و"التعاون، وتقسيم العمل والآلات" وأخيراً عن "التراكم البدئي" هي الأسهل قراءة. وسيكون عليك أن تشرح لها تلك المصطلحات التي لا تحيط بها. وإذا ما كانت هناك أيّ نقاط محلّ شكّ، فسوف يسرّني أن أساعد". وحين قرأ الاشتراكي البريطاني العظيم وليم موريس رأس **المال**، قال: "لقد استمتعت بالقسم التاريخي أشدّ الاستمتاع" لكنه اعترف بأنه عانى "تباريح تشوّش الدماغ لدى قراءة ما في ذلك الكتاب العظيم من اقتصاد محض. وعلى أيّ حال، لقد قرأتُ ما استطعتُ، وآمل أن تكون قد بقيت لديّ بعض المعلومات من قراءاتي هذه" (وقد ثبت أنّ هذه القراءة كانت استثماراً جيداً بجميع المعاني: فقد بيعت نسخة موريس من المجلّد الأول، وهي نسخة ذات غلاف جلدي مزخرف، مقابل 50000 دولار في مزاد جرى في أيار 1989.

ولعلّ عدم الفهم المحض، وليس العداوة السياسية، هو الذي يفسّر ردّة الفعل الخافتة على رأس **المال** في طبعته الأولى. ولقد أزعج ماركس ذلك "الصمت إزاء كتابي". وحاول إنجلز أن يروّج

للكتاب بتقديمه للصحف مراجعات معادية بأسماء زائفة وحثّ أصدقاء ماركس الآخرين على فعل الشيء ذاته. وقال لكوغلمان: "الشيء الأساسي هو أنّ الكتاب ينبغي آن يُطْرَح للنقاش مرّة بعد مرّة، بأيّ طريقة مهما تكن. وكما يقول صديقنا القديم يسوع المسيح، ينبغي أن نكون ودعاء كالحمامة وحكماء كالأفعى". وفعل كوغلمان ما بوسعه، وأرسل مقالات إلى اثنتين من الصحف في هانوفر. غير أنّهما لم تلقيا كثيراً من الضوء لأنّه هو نفسه لم يفهم الكتاب. وأرغى إنجلز وأزْبَد: "إنّ كوغلمان يزداد سذاجةً كلّ يوم".

استغرق نفاد الطبعة الأولى التي صدرت في 1000 نسخة أربع سنوات. ومع أنّ ماركس زعم في تذييله للطبعة الثانية (1872) أنّ "التقدير الذي سرعان ما حظي به **رأس المال** لدى أوساط واسعة من الطبقة العاملة الألمانية هو خير مكافأة على عملي"، إلا إنّه من غير المحتمل أن يكون الكتاب قد وصل إلى أيدي كثير من العمال، على الرغم من أنهم كانوا قد تعرّفوا على موضوعاته الأساسية من خلال سلسلة من المقالات كتبها جوزيف ديتزغن للـ Demokratisches Wochenblatt (المجلة الأسبوعية الديمقراطية). وكتبت جيني ماركس: "لا يمكن أن يكون هناك سوى قليل من الكتب التي كُتِبَت في ظروف أصعب، ولو كان لدى العمال أدنى فكرة عن التضحيات التي كانت ضرورية لكي يكتمل هذا العمل، الذي لم يُكْتَب إلا لهم ومن أجلهم، لربّما أبدوا قدراً من

الاهتمام أكبر بقليل". ولكن كيف كان سيمكنهم أن يبدوا مثل هذا الاهتمام، إزاء كتاب بمثل هذا الطول والكثافة والموضوع غير المألوف؟ فالاقتصاد السياسي -كما قال ماركس نفسه- "لا يزال علماً أجنبياً في ألمانيا".

بيد أنَّ ردود فعلٍ مهتمّة راحت تبرز في غير مكان. فمنذ كانون الثاني 1868، بعد شهرين من نشر الكتاب، أشارت **الساتردي ريفيو** اللندنية إلى **رأس المال** من ضمن مجموعة من الكتب الألمانية الصادرة حديثاً. وقالت إنَّ "آراء المؤلّف قد تكون خبيثةً كما نتوقّع، غير أنّه لا مجال للشكّ في معقوليّة منطقه، وقوة بلاغته، والسحر الذي يتناول فيه أشدّ المشكلات جفافاً في الاقتصاد السياسي". كما ظهرت إشارة في **الكونتيمبوراري ريفيو** بعد خمسة أشهر من صدور الكتاب، عبّرت من منطلق وطني عن ازدرائها الاقتصاد الألماني ("لا نظنّ أنّ لدى ماركس كثيراً مما يعلّمنا إيّاه"). لكنها أثنت على المؤلّف لأنّه لم يَنْسَ "الاهتمام الإنسانيّ. "الاهتمام الجائع والظمآن" الذي يشكّل أساس العلم".

وفي ربيع العام 1872 ظهرت ترجمةٌ روسية لـ **رأس المال**، ومرّت من رقباء القيصر على اعتبار أنْ ليس فيها ما ينطبق على روسيا فلا يمكن، إذاً، أن تلعب ذلك الدور الهدّام (مع أنهم أزالوا صورةً للمؤلّف، خشية أن تثير عبادةً لشخصه). وقد حكموا على النصّ أنّه مستغلق لدرجة أنَّ "قلّة وحسب هي التي ستقرأه وأقلّ

منها هي التي ستفهمه". غير أنّ الثلاثة آلاف نسخة نفدت في معظمها خلال سنة واحدة. وفي حين لم يكن كتاب ماركس متاحاً أو معروفاً في معظم بلدان الغرب الرأسمالية، راحت صحف ومجلات روسيا ما قبل الرأسمالية تنشر المراجعات التي تقرّظه وتثني عليه. وقد كتب ماركس لإنجلز: "أليس من المفارقة أنّ الروس، الذين قارعتهم على مدى خمسة وعشرين عاماً، يريدون دوماً أن يكلأوني برعايتهم؟ إنهم يهرعون وراء ما يقدّمه الغرب من الأفكار الأشدّ تطرُّفاً، انطلاقاً من النّهم المحض". ولقد سُرَّ ماركس على نحوٍ خاص بإشارةٍ ظهرت في **السان بطرسبورغ جورنال**، تمتدح "الحيوية الاستثنائية" في نثره. وأضافت: "ليس للمؤلّف من نظير، في هذا الصّدد... فغالبية الباحثين الألمان يكتبون كتبهم بلغةٍ بالغة الجفاف والغموض تصدّع رؤوس العاديين من البشر الفانين".

وكان تقديم طبعةٍ فرنسيةٍ يمثّل مشكلة أكبر. فعلى الرغم من بدء العمل على هذه الطبعة في العام 1867، بعد نشر الطبعة الألمانية مباشرةً، إلاّ أنَّ محاولات الترجمة التي شهدتها السنوات الأربع التالية، والتي لا تقلّ عن خمس محاولات، رُفِضَت جميعاً. وفي النهاية، بارك ماركس عمل جوزيف روا، الأستاذ من بوردو. غير أنّه وجد، بعد مراجعة الفصول الأولى، أنّ ترجمة روا "حسنة بوجه عام"، لكنه غالباً ما يترجم بحرفية زائدة. "ولذلك وجدتُ

نفسي مضطراً لأن أعيد كتابة مقاطع كاملة بالفرنسية، لجَعْلِها مقبولة ومستساغة". وقرّر الناشر، بموافقة ماركس، أن يصدر الكتاب على فصول أو حلقات ("ففي هذا الشكل سيكون الكتاب أيسر منالاً للطبقة العاملة")، وصدرت أولى هذه الحلقات في أيار 1875.

أمّا في البلد الذي آل إليه نفي ماركس، فقد تلا تلك المراجعات الباكرة الواعدة صمتٌ طويل. وفي آذار 1875، كتب المحامي في المحاكم العليا السِّرْ جون مَكْدونِلَ في **الفورتنايتلي ريفيو**: "على الرغم من أنّ ماركس عاش طويلاً في إنجلترا، إلاّ أنّه يكاد أن يكون مغموراً هنا. وقد يكرّمه الناس هنا بالإساءة إليه؛ أمّا أن يقرأوه فلا". وكان ماركس يعتقد أنّ "تلك الموهبة الخاصة المتمثّلة بسماكة الدماغ وتبلّده" هي حقّ يكتسبه كلّ بريتوني بالولادة، وما أثبت تحامله هذا هو أنّه لم تظهر طبعة إنجليزية من **رأس المال** إلا بعد وفاته. وقد كتبت دار النشر ميسرز **ماكميلان وشركاه** إلى صديق إنجلز كارل شورليمر، أستاذ الكيمياء العضوية في جامعة مانشستر: "نحن في غاية الامتنان لرسالتك. غير أننا لسنا مهيّئين لتحمّل نشر ترجمة ل رأس المال". وكان على أولئك القلّة من البريتون الذين أرادوا دراسة الكتاب أن يبذلوا ما وسعهم من جهد مع الطبعات الألمانية، أو الروسية، أو الفرنسية. ولقد قال الصحفي الإنجليزي الراديكالي بيتر فوكس، ناشر **الناشينال ريفورمر**، بعد

تلقّيه الطبعة الألمانية إنّه شعر كما يشعر شخص قُدّم إليه فيل ولا يعلم ما الذي يفعله به. أمّا روبرت بانر، العامل الاسكتلندي، فقد أرسل إلى ماركس هذا الالتماس المكروب طالباً مساعدته:

أليس هناك من أمل في أن يُتَرْجَم؟ فما من عمل بالإنجليزية يدافع عن قضية الجماهير الكادحة، كلّ كتاب نضع عليه أيدينا نحن الاشتراكيون الشباب هو عمل يقف في صفّ رأس المال، وهذا هو السبب في تخلّف قضيّتنا في هذا البلد. ومع عمل يُعْنَى بالاقتصاد من وجهة نظر الاشتراكية، سرعان ما ستجد حركةً في هذا البلد تضع حداً لهذه الحالة النغلة.

فأولئك الذين كانوا بأمسّ الحاجة إلى الكتاب كانوا الأقلّ قدرة على فهمه، في حين أنّ النخبة القادرة على قراءته لم تكن راغبةً في ذلك. وكما كتب الاشتراكي الإنجليزي هنري هيندمان: "لقد اعتدنا في هذه الأيام، خاصةً في إنجلترا، على ألاّ نبارز إنْ لم يكن ثمّة أزرار لينة كبيرة على أطراف سيوفنا، وهجوم ماركس العنيف والمخيف بفولاذٍ عارٍ على خصومه بدا نابياً بحيث كان من المستحيل بالنسبة لمقاتلينا المهذّبين الذين ليسوا مقاتلين إلاّ في الظاهر ورجالنا ذوي الروح الرياضية أن يصدّقوا أنّ هذا المُجادِل العنيف ومُهاجِمُ رأس المال والرأسمالية الحانق هو حقّاً أعمق مفكّر في عصرنا".

وكان هيندمان نفسه استثناءً من هذه القاعدة. ففي 1880، بعد قراءته ترجمة **رأس المال** الفرنسية، أمطر المؤلّف بوابلٍ من الإشادات المغالية التي اضطرت ماركس لأن يقابله. غير أنَّه على الرغم من اعتراف هيندمان نفسه بأنّه "تواّق لأن يتعلّم"، إلاّ أنّه هو الذي استأثر بمعظم الحديث: وبات ماركس يتوجّس خيفة من زيارات هذا "الثرثار المُعْجَب بذاته". وكان فراقهما الحتميّ في حزيران 1881. حيث اشتمل البيان الاشتراكي الذي وضعه هيندمان، بعنوان **إنجلترا للجميع**، على فصلين منتحلين في معظمهما من **رأس المال** دون إذن أو حتى إقرار بالأمر، سوى هامش في التصدير يعترف فيه بأنّه "مدين، فيما يتعلّق بالأفكار وقَدْر كبير من المادة التي يحتويها الفصلان الثاني والثالث، لعملِ مفكّرٍ عظيمٍ وكاتبٍ أصيل، لا شكَّ أنّه سوف يكون متاحاً خلال فترةٍ وجيزةٍ لغالبية أبناء بلدي". ورأى ماركس أنَّ هذا ناقص على نحوٍ مُخْزٍ ولا يفي بالغرض: فلماذا لم يُشِر هيندمان إلى **رأس المال** أو إلى مؤلّفه بالاسم؟ كانت حجّة هيندمان الواهية أنَّ لدى الإنجليز "رعب من الاشتراكية" و"هلع من أن يعلّمهم أجنبي". غير أنَّ كتاب هيندمان، كما أشار ماركس، لم يكن من شأنه أن يسكّن ذلك الرعب بإثارته "حلم الاشتراكية" في الصفحة 86. وأيّ قارئٍ متوسّط الذكاء لا بد أن يخمّن منذ التصدير أنّ "المفكَر العظيم" الغُفْل لا بدّ أن يكون أجنبياً. فالأمر، إذاً، أمرٌ سرقةٍ صرف وواضحة، مترافقة مع إقحام

أخطاء بلهاء في الفقرات التي لم تؤخذ من **رأس المال** كما وردت فيه حرفياً.

ولم يكد ماركس يختلف مع مريدٍ إنجليزي حتى جاءه واحد آخر، مع أنّه اهتمّ هذه المرّة بألاّ يلتقي الرجل. ولقد وُلِدَ إرنست بِلْفورت باكس في العام 1854، وجعلته **كومونة باريس** جذرياً وهو لا يزال صبيّ مدرسة، وفي العام 1879 بدأ ينشر في شهريّة **الفكر الحديث** النخبوية سلسلة طويلة من المقالات حول مفكريّ العصر من العمالقة. وكان من بينهم شوبنهور، وفاغنر، و(في 1881) كارل ماركس. ولأنَّ باكس كان قد درس الفلسفة الهيغلية في ألمانيا، ربما كان بين أبناء جيله من الاشتراكيين الإنجليز الوحيد الذي قبل الديالكتيك بوصفه دينامية الحياة الداخلية. وقد وصف **رأس المال** بأنه الكتاب "الذي يجسّد اشتغال مذهب في الاقتصاد تمكن مقارنته من حيث طابعه الثوري ومدى أهميته الواسع بالنظام الكوبرنيكي في علم الفلك، أو قانون الجاذبية في الميكانيك". ولقد سُرَّ ماركس بذلك، ورحّب بمقالة باكس بوصفها "أول مطبوعةٍ من هذا النوع مفعمة بحماس حقيقي للأفكار الجديدة وتقف بجرأة ضدّ النزعة البريطانية النافرة من الثقافة".

غير أنَّ هيندمان المُحْتَقَر، على الرغم من جميع أخطائه، هو الذي قام بأكثر مما قام به باكس أو أيّ أحد آخر لنشر أفكار ماركس في هذا البلد النافر من الثقافة. ولقد بقي ذلك المريد المتحمّس،

الذي اقتبس من ماركس على نحوٍ مُسْهَب - مشيراً إليه بالاسم هذه المرّة - في كتابه **الأساس التاريخي للاشتراكية في إنجلترا**، الذي صدر عام 1883. بل إنّه أسّس حزباً سياسياً ماركسياً على نحوٍ صريح، هو **الاتحاد الديمقراطي** (ولاحقاً **الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي**)، الذي كان من بين أعضائه البارزين كلٌّ من باكس، ووليم موريس، وولتر كرين، وابنة ماركس اليانور، وحبيبها إدوارد آفيلنغ. ودفاع هيندمان الحماسي عن رأس المال في اجتماعات **الاتحاد** هو الذي دفع الكاتب الإيرلندي الشاب جورج برنارد شو لأن يكرّس خريف 1883 لدراسة الطبعة الفرنسية في قاعة المطالعة في **المتحف البريطاني**، حيث وقع ماركس على قدْرٍ كبير من مادّته الخام. وقد تذكّر شو ذلك معتبراً إياه "نقطة تحوّل في مسيرة حياتي. فماركس كان ضَرْباً من الكشف... فتح عينيّ على وقائع التاريخ والحضارة، ومنحني تصوّراً للكون جديداً تماماً، وزوّدني بغايةٍ ورسالة في الحياة". وقال عن رأس المال إنّه "حقّق أعظم مأثرة يمكن لكتاب أن يحقّقها، وهي تغيير عقول من يقرأونه".

ولم يبهت قطّ شغف شو بكتاب **رأس المال**، الأمر الذي تثبّته هذه الإشادة المغالية المميّزة في الصفحة الأولى ذاتها من كتابه **دليلٌ سياسي للجميع**، الذي كتبه بعد أكثر من ستين عاماً:

لم يبلغ التشاؤم والنزعة الكلبيّة أشد أعماقهما سواداً قبل القرن التاسع عشر، حين انتزع كارل ماركس

> تقارير مفتشي مصانعنا من كتبنا الزرقاء غير المقروءة وكشف الرأسمالية بكلّ شناعتها. فقد أثبت تماماً أنّ رأس المال في سعيه وراء ما دعاه Mehrweth، وهو ما نترجمه بـ فضل القيمة (الذي يضمّ الريع، والفائدة، والربح التجاري)، لا يعرف الرحمة. ولا يقف عند حدّ، حتى الدمار والمذبحة، والرقيق الأبيض والأسود، والمخدرات والمسكرات، إذا ما كان ذلك يعد بشلن واحد زيادة على عوائد الإحسان وحبّ الخير. وقبل ماركس كان ثمّة قدْر وافر من التشاؤم. وسفر الجامعة في الكتاب المقدّس ممتلئ به. وشكسبير في الملك لير، وفي تيمون الأثيني، وفي كريولانس، يصل إليه ويعلق هناك. وكذلك يفعل سويفت وغولد سميث. غير أنّ أحداً منهم لم يستطع أن يوثّق الحالة من المصادر الرسمية كما فعل ماركس. وقد خلق بذلك تلك الحاجة إلى "عالم جديد" لا يلهم الشيوعية والاشتراكية الحديثتين وحسب بل غدا أيضاً في 1941 شعاراً برنامجياً لدى كلٍّ من المحافظين ورجال الكنيسة المتحمّسين.

لم يحقق شو سوى قليل من النجاح في نشر الإنجيل بين زملائه من أعضاء **الجمعية الفابية**، التي انضمّ إليها عام 1884،

فصديقه هـ. ج. ويلز صرف النظر عن ماركس بوصفه ذلك "المنظّر المتعجرف، المتمركز على أناه، والحقود" الذي "أعطى لأرخص الدوافع البشرية وأدناها تلك الوضعيات التي تتّخذها فلسفةٌ دعيّة متفاخرة". وبتأثيرٍ من منظّرهم الرئيس، سيدني ويب، قاد الفابيون الاشتراكية البريطانية بعيداً عن تصوّرات الحرب الطبقية والثورة باتجاه القناعة التي مفادها أنَّ الدولة البريطانية القائمة يمكن، من خلال حقّ الاقتراع الشامل، أن تسنّ تشريعات اجتماعية تعزّز رفاهية الطبقة العاملة وكفاءة النظام الاقتصادي. وهذا ما غدا المبدأ الأساسي السائد لدى **حزب العمال** أيضاً، الذي تشكّل عام 1900. وقد يكون ثمّة مبالغة في ذلك التهكّم القديم الذي يرى أنّ **حزب العمال** يدين للميثودية [تلك الجماعة الدينية المسيحية التي تتبع تعاليم جون ويسلي] بأكثر مما يدين لماركس: فبين أنصاره، وأعضائه في البرلمان، كان ثمّة اشتراكيون قد يصفون أنفسهم بأنهم متأثّرين بماركس إنْ لم يصفوا أنفسهم بأنهم ماركسيين: بل إنَّ الحزب أصدر في العام 1947 طبعة جديدة من **البيان الشيوعي** "إقراراً بما يدين به إلى ماركس وإنجلز بوصفهما الرجلين اللذين ألهما حركة الطبقة العاملة برمّتها". غير أنَّ قادة **حزب العمال** لطالما استصوبوا رأي هارولد ولسون بأنّ تراث ماركس لا أهمية له، ولعلّه أن يكون مُضِراً في حقيقة الأمر، بالنسبة لحزب دستوري من يسار الوسط.

وفي ألمانيا، موطن ماركس، غدت أفكاره الإيديولوجيا السائدة لدى **الحزب الاشتراكي الألماني** Sozialistisch Partei Deutschlands (SPD) في مؤتمره الذي عقده عام 1891 في إيرفورت. لكن برنامج إيرفورت كان يتألّف من نصفين متميزين، ينذران بصراع مديد بين الثوريين والتنقيحيين. فالقسم الأول، الذي وضع مسودته كارل كاوتسكي مريد ماركس. كان يُفْصِح عن نظريات مألوفة مستمدّة من **رأس المال**، مثل الميل إلى الاحتكار وإفقار البروليتاريا؛ أمّا النصف الثاني، الذي كتبه إدوارد برنشتين، فكان يُعْنَى بأهداف سياسية مباشرة، مثل الاقتراع الشامل، ومجانية التعليم، وضريبة الدخل التصاعدية. وكان برنشتين قد عاش في لندن في ثمانينيات القرن التاسع عشر ووقع تحت تأثير الفابيين الأوائل: حتى إنَّ روزا لوكسمبورغ تذمّرت من أنه "يرى العالم من خلال عدسات إنجليزية".

وفي العقد الذي تلا مؤتمر إيرفورت تنصّل برنشتين من قَدْر كبير من تراث ماركس. ورَفَض نظريّته في القيمة بوصفها "مفهوماً مجرّداً محضاً" يقصّر عن تفسير العلاقة بين العرض والطلب. ورغب كاوتسكي في البداية عن انتقاد رفيقه القديم، وبدا في بعض الأحيان كأنّه يشجّعه: "لقد أطحتَ بتكتيكاتنا، ونظريّتنا في القيمة وفلسفتنا؛ ويتوقّف كلّ شيء الآن على الجديد الذي تفكّر في أن تحلّه محلّ القديم". ومع نهاية القرن، اتّضحت تماماً نوايا برنشتين،

فالرأسمالية، بدلاً من أن تطيح بها أزمة محتومة ووشيكة، ربما تدوم وتجلب مزيداً من الازدهار للجماهير. وإذا ما نُظِّمَت على النحو الملائم، قد تثبت عملياً أنها محرِّك التقدّم الاجتماعي:

> **هكذا يكون من الخطأ تماماً أن نفترض أنّ التطور الحالي الذي يشهده المجتمع يبدي عن انخفاض نسبيّ أو مطلق في عدد أعضاء الطبقات المالكة. فعدد هؤلاء يزداد سواء على نحو نسبيّ أو على نحو مطلق... وآفاق الاشتراكية لا تتوقّف على نقص الثروة الاجتماعية بل على زيادتها.**

ومع أنَّ الحزب الاشتراكي الألمانيّ ظلّ يشير إلى ذاته بوصفه منظمة بروليتارية ثورية، إلا أنّه بات عملياً حزباً برلمانياً يحقّق نجاحات متزايدة ويقوده أصحاب النزعة التدرّجيّة والتكنوقراط.

ولعلّ ماركس نفسه، بوصفه ذوّاقة وخبيراً بالسخرية، كان ليضطرّ للابتسام (أو ليّ الحنك على الأقلّ) إزاء هذا المصير الذي آلت إليه الأمور؛ حيث بات نبيّاً بلا كرامة في وطنه الأمّ، فما بالك بالوطن الجديد الذي اتّخذه بريطانيا. وذلك في الوقت الذي راح يلهم انقلاباً مزلزلاً في المكان الذي كان أبعد ما يكون عن توقّعاته، روسيا، ذلك البلد الذي نادراً ما ورد ذكره في **رأس المال**. وفي أواخر حياته راح ماركس يحسّ بالندم على هذا الإغفال: ذلك أنَّ

النجاح الذي حقّقته الطبعة الروسية من رأس المال دفعه لأن يتساءل عمّا إذا كان ثمّة احتمال ثوريٌّ يتفاعل هناك.

وكان مترجمه الروسي في سان بطرسبورغ، نيكولاي دانييلسون، قائداً للحركة النارودنيّة أيضاً. تلك الحركة التي رأت أنّ بمقدور روسيا أن تمضي مباشرة من الإقطاعية إلى الاشتراكية. وأقنعتها تلك الصورة التي رسمها ماركس لآثار الرأسمالية ومفاعيلها المدمّرة للروح بأنّ هذه المرحلة من مراحل النموّ الاقتصاديّ ينبغي تفاديها إذا ما كان ذلك ممكناً، وبما أنّ في الريف الروسي ذلك الشكل الجنينيّ من ملكيّة الأرض المشاعيّة فقد كان يُعَدُّ انحرافاً وضرباً من التشويه أن يجري تحطيم الكومونات أو المشاعات الفلاحية بغية تسليمها لملاّك الأرض لمجرّد الخضوع لقانون تاريخيّ حتميّ مزعوم. أمّا بالنسبة للماركسيين الأرثوذكس مثل جورج بليخانوف، الذي رأى أنّ الشروط الاشتراكية لن تنضج قبل أن يجري تصنيع روسيا. فقد كان ذلك نوعاً من الغباوة وخداع الذات. وهذا ما بدا أنّ ماركس يراه أيضاً على مدى عقدٍ أو أكثر من نشر **رأس المال**. وقد كتب في العام 1876، ردّاً على أحد النارودنيّين كان قد احتجّ على رؤيته الحتمية للتاريخ، أنّه إذا ما كان لروسيا أن تغدو بلداً رأسمالياً على غرار البلدان الأوروبية الغربية فإنّها "لن تفلح في ذلك قبل أن تُحوِّل قَدْراً كبيراً من فلاّحيها إلى بروليتاريا؛ وبعد ذلك، أي بعد أن تكون قد أُخِذَت إلى كَنَف النظام

الرأسمالي سوف تختبر قوانينه التي لا تعرف الرحمة. شأنها شأن الشعوب الدنيوية الأخرى. غير أنّ ماركس ظلَّ يمعن الفِكْر في التطوّرات الجارية في روسيا، والتي كانت تهدّد بدحض نظريّاته. فحركة التمرّد هناك قد تكون صغيرة لكنها ذات عزيمةٍ وفعالية هائلتين: فبين العام 1879 والعام 1881 قامت جماعةٌ منشقّةٌ عن النارودنييّن، تُدْعى **إرادة الشعب**، بستّ محاولات لاغتيال القيصر الكسندر الثاني، إلى أن نجحت أخيراً محاولتها السابعة (وبعد ستّ سنوات حاولت **إرادة الشعب** أيضاً أن تغتال القيصر الكسندر الثالث: وكان أحد الذين شُنِقوا بسبب دورهم في هذه المؤامرة الكسندر أوليانوف، الذي سيغدو أخوه المراهق في ذلك الحين فلاديمير إيليتش أوليانوف من سيُعْرَف بالاسم المشهور ف. إ. لينين). ودفع سيلٌ الاعتقالات والإعدامات التي تلت ذلك كثيراً من الثوريين الروس إلى المنفى. فذهب بليخانوف إلى سويسرا مع عدد من الرفاق من بينهم فيرا زاسوليتش التي أطلقت النار في العام 1876 على الحاكم العام لسان بطرسبورغ ثمّ آدّت في قاعة المحكمة ذلك الأداء البارع لدرجة أنّ المحكمة برأتها من محاولة الاغتيال. وعلى الرغم من سجلّها، رفضت زاسوليتش ذلك الميل المتزايد إلى العنف والاغتيال في صفوف الاشتراكية الروسية، التي بدت وكأنها قد أضاعت فهمها للضرورات الاقتصادية التي أشار إليها **رأس المال**. بيد أن مسألة الفلاحين والبروليتاريين ظلت تقلق زاسوليتش

وزملاءها المنفيّين على ضفاف بحيرة جنيف. وفي شباط 1881 لجأت إلى ماركس طلباً لرأيه الموثوق. فكتبت له "أنت تعلم أنّ كتابك **رأس المال** يحظى بشعبية عظيمة في روسيا. لكنّ ما لا تعلمه هو الدور الذي يلعبه **رأس المال** في نقاشاتنا التي تتناول المسألة الزراعية". وطلبت منه أن ينهيَ ذلك الخلاف "بتبيان الرأي في المستقبل المحتمل لمشاعتنا القروية وفي النظرية التي ترى أن ثمة حتمية تاريخية تضطر جميع بلدان العالم لأن تمرّ بجميع أطوار الإنتاج الرأسمالي"؟

وأقضّت هذه المشكلة مضجع ماركس أسابيع قليلة. وكتب ما لايقلّ عن خمس مسوَدات لردّه المُزْمَع. وفي النهاية بعث لها برسالةٍ موجزة تقول "إنّ ما يُدعى نظريَتي" قد أُسيءَ فهمها: فحتميّة الطور البرجوازي التاريخية "مقصورةٌ **بلا لبْس على بلدان أوروبا الغربية**". فالانتقال الغربيّ من الإقطاعية إلى الرأسمالية مثّل تحوّلاً من نمطٍ للملكية الخاصة إلى نمطٍ آخر. أما في حالة الفلاحين الروس "فستكون المسألة، على العكس، مسألة تحويل ملكيّتهم المشتركة إلى ملكية خاصة. ولذلك فإنّ التحليل الذي يقدّمه **رأس المال** لا يورد حججاً مع أو ضد قابلية المشاعة القروية للحياة". وكان ذلك مشجّعاً أكثر من تعليقاته التي أدلى بها قبل أربع سنوات وحسب، لكنه كان أكثر حذراً من المسوّدة الأولى لرسالته إلى زاسوليتش، والتي شرح فيها ما يجعل فرار الفلاحين الروس من مصير

نظرائهم الأوروبيين الغربيين ممكناً والكيفية التي يمكن أن يتمّ بها هذا الفرار:

في روسيا، وبفضل تضافر ظروف فريدة يمكن للمشاعة القروية، التي لا تزال قائمة على نطاق البلد ككلّ، أن تنفصل تدريجياً عن خصائصها البدائية وتتطور مباشرة كعنصر من عناصر الإنتاج الجمعيّ على نطاق البلد ككلّ... وإنقاذ المشاعة الروسية، يحتاج ثورة روسية. وذلك هو السبب في أنّ الحكومة و "أعمدة المجتمع الجدد" يفعلون ما بوسعهم لتهيئة الجماهير لمثل هذه الكارثة. وإذا ما أتت الثورة في اللحظة المناسبة، وركّزت جميع قواها على إتاحة فرصة التطور الكامل أمام المشاعة القروية، فإنّ هذه الأخيرة سرعان ما ستتطوّر كعنصر من عناصر التجديد في المجتمع الروسي وكعنصر من عناصر التفوق على البلدان التي يستعبدها النظام الرأسمالي.

وبعد خمسة أيام من إرسال ماركس الطبعة الأخيرة من رسالته، قامت جماعة صغيرة من إرادة الشعب باغتيال القيصر الكسندر الثاني في سان بطرسبورغ بإلقاء قنبلة على عربته.

ونظراً لقناعة ماركس التي حملها طويلاً بأنّ الثورة لا يمكن أن تتحقق إلاّ من خلال فعل الطبقة العاملة الجمعيّ، لا من خلال البهلوانيات الفردية أو أعمال الإرهاب، كان من المتوقّع أن يقف ماركس في صفّ زاسوليتش وبليخانوف وليس في صفّ رماة القنابل الذين يصرخون الموت أو النصر. غير أنّه أسرَّ لابنته جيني في إحدى الرسائل بأنّ المنفيّين السويسريين هم "مجرّد عقائديين، واشتراكيين فوضويين مبلبلي الفكر، وتأثيرهم معدوم على "ساحة الحرب" الروسية". أمّا أولئك الذين يقومون بالاغتيالات في سان بطرسبورغ فهُم، على العكس، "رجالٌ ذوو خلق متين، دون استعراضات ميلودرامية، بسطاء، واقعيون، بطوليون... لا يألون جهداً في تعليم أوروبا أنّ **طريقتهم في العمل** روسيّة نوعياً وأنّها أسلوبٌ في العمل محتوم تاريخياً لم يعد يُسْلِم نفسه للتفسيرات الأخلاقية - المؤيِّدة أو المعارضة - إلاّ بقدْر ما يسلم زلزال تشيوس نفسه لمثل هذه التفسيرات".

وما كان ليُصدِّق أن يتّخذ كارل ماركس الشاب مثل هذا الموقف: فلطالما أدان أولئك الاشتراكيين الذين وضعوا ثقتهم بالانقلابات والمؤامرات السريّة. أمّا في العام 1881 فكان مريضاً ومنهكاً. ولأنّ انتظاره الثورة البروليتارية الحقّة طال كثيراً فقد بات الآن نافذ الصبر حدّ التعب إزاء أيّ انتفاضة من أيّ نوع. وبعد ولادة حفيده ذلك الربيع، راح يتأمّل في أنّ الأطفال "الذين وُلِدوا

عند هذا المنعطف من التاريخ... أمامهم مرحلة ثورية لم يسبق للبشر قطّ ان شهدوا ما يماثل ثوريّتها. وأسوأ شيء الآن أن يكون المرء "عجوزاً" فلا يمكنه سوى أن يتنبّأ بدلاً من أن يرى".

وكان جميع مهندسي ثورة 1917 (ثورة أكتوبر الروسية) يستشهدون بماركس، وبـ **رأس المال** خاصةً، كسلطة أو مرجعية سماوية تدلّ على صوابيّة آرائهم. وكان تروتسكي قد درس الكتاب في العام 1900 حين نُفِيَ إلى قريةٍ في سيبيريا تعجّ بالحشرات المريعة "نافضاً الصراصير عن صفحاته"، كما تذكّر لاحقاً. أمّا لينين فقد قال إنّه قرأ الكتاب في العام 1881، ولم يتخطَّ الثامنة عشرة، جالساً إلى موقد في مطبخ بيت جدّه لأبيه. ومنذ ذلك الحين فصاعداً راح يستخدم **رأس المال** - أو تلك الأجزاء التي تلائم أغراضه من هذا الكتاب - مثل سكين يهاجم بها خصومه. (قال مكسيم غوركي عن خطابات لينين إنها تتّسم بذلك "اللمعان القاسي الذي يتّسم به نثار الفولاذ"). ومع أنّ كتابه الأساسي الأول، **تطور الرأسمالية في روسيا**، كان قد قُدِّم كنوع من الملحق لكتاب ماركس، إلاّ أننا لا نجد فيه أيّ شيء من تلك السخرية وذلك السخط اللذين نجدهما في **رأس المال**. وكما لاحظ إدموند ولسون، فإنَّ "كتابة لينين هي كتابة وظيفيّة برمّتها: تهدف إلى تحقيق غَرَضٍ مباشر... فهو ببساطة رجلٌ يريد ان يُقْنِع". وكان الغرض المباشر لكتابه **تطور الرأسمالية في روسيا** أن يُقْنِع رفاقه بأنَّ بلادهم قد

خرجت من الإقطاعية بفضل الانتشار السريع الذي انتشرته السكك الحديدية، ومناجم الفحم، ومصانع الحديد، ومصانع النسيج في ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته. صحيحٌ أنّ البروليتاريا الصناعية لا توجد إلاّ في موسكو وسان بطرسبورغ، إلاّ أنّ هذا يزيد من ثقل تلك المهمة الملقاة على عاتقها في أن تلعب دورها كطبقة طليعية تعبّر عن مظالم الفلاحين والحرفيين أيضاً. ففي المصانع الجديدة، كما قال، "تطور الاستغلال تماماً وبرز في شكله الصريح، دون أيّ تفاصيل مُربِكة أو مشوِّشة. فلا يسع العامل إلا أن يرى اضطهاده من قبل رأس المال... وهذا هو السبب في أنّ العامل في المصنع ليس سوى الممثّل المتقدّم لجميع السكان المستغلّين". غير أنّ لينين أضاف في كرّاسه: **ما العمل؟** أنَّ انشغال العمال الزائد بكفاحهم الاقتصادي يعيقهم عن تطوير وعي ثوري صحيح:

> **هنالك كلام كثير على العفوية. لكن تطور حركة الطبقة العاملة العفوي يؤدي إلى خضوعها للإيديولوجيا البرجوازية: ذلك أنَ حركة الطبقة العاملة العفوية هي النزعة النقابية، والنزعة النقابية تعني استعباد العمال الإيديولوجي للبرجوازية. ولذلك فإنَ مهمتنا، مهمة الديمقراطية الاجتماعية، هي محاربة العفوية، وتحويل حركة الطبقة العاملة**

عن هذا الكفاح النقابي، العفوي الذي يضعها تحت جناح البرجوازية، والإتيان بها تحت جناح الديمقراطية الاجتماعية الثورية.

فالحملات الجماهيرية الرامية إلى تحسين شروط العمل وتقصير مدّته، مما دافع عنه ماركس في **رأس المال**، تُنْبَذ عند لينين بوصفها مضيعة للوقت. وبدلاً من ذلك، على العمال أن يضعوا أنفسهم في تصرّف ثوريين محترفين مثله هو نفسه: "فالحركة الاشتراكية المعاصرة لا يمكن أن توجد إلا على أساس معرفةٍ علمية عميقة... وحملة هذا العلم ليسوا البروليتاريا بل الإنتلجنسيا البرجوازية". ويمكن للمرء أن يرى في هذه الجملة شكلاً جنينياً لما سيغدو في النهاية ضرباً من الطغيان الُمريع.

وبوصفه حامل **الوصايا العشر** الذي عيّن نفسه بنفسه، فإنَّ لينين كان يروقه أن يذكّر الرفاق بمكانتهم الفكرية المتدنية. وقد كتب في **الدفاتر الفلسفية**: "من المستحيل فهم كتاب ماركس **رأس المال** وخاصةً فصوله الأولى دون دراسةٍ وفهمٍ دقيقين ل **منطق هيغل برمّته**. ولذلك، بعد أن مضى نصف قرن، لا أحد من الماركسيين يفهم ماركس". إلا هو، بالطبع. غير أنَّ ما كان لدى لينين من "معرفةٍ علمية"، على الرغم من كلِّ ما قرأه وما كتبه، لم يكن يتجاوز في عمقه ما اقتضته الحاجة. وإليكم هذا التقويم الحاد الذي قدّمه تروتسكي، وهو من أتيحت له فرصة أن يرصد لينين عن قرب:

> **يظهر ماركس بأكمله في البيان الشيوعي، في نقد الاقتصاد السياسي، في رأس المال. وحتى لو لم يُقَيَّض له قطّ أن يغدو مؤسِّس الأممية الأولى، لكان بقي على مرّ الأزمان تلك الشخصية التي نعرفها اليوم. أما لينين بأكمله، من جهة أخرى، فيظهر في العمل الثوري. وأعماله العلمية ليست سوى توطئة للنشاط.**

ولعلّها لا ترقى حتى إلى مستوى التوطئة. فقد كتب لينين في العام 1917: "إنَّ الاستيلاء على السلطة هو هدف الانتفاضة. أمّا مهمّتها السياسية فسوف تُوضَّح بعد الاستيلاء". ويشير المؤرّخ برترام وولف إلى أنَّ هذا كفيلٌ بأن يقلب ماركس رأساً على عقب: فالقناعة الماركسية بأنَّ الاقتصاد هو الذي يحدّد السياسة في نهاية المطاف "تغدو وجهة النظر اللينينية التي مفادها أنّ السلطة ذاتها، السلطة السياسية العارية، مع قَدْرٍ كافٍ من العزم، يمكن أن تفلح تماماً في أن تحدد الاقتصاد". ولا عجب من أنَّ العقيدة التي سادت الاتحاد السوفييتي قد اتّخذت اسم **الماركسية-اللينينية**، بدلاً من **الماركسية** وحسب. فشعار ماركس المفضّل كان de omnibus dubitandum (الشكّ في كلّ شيء"). غير أنّ أحداً من الذين حاولوا ممارسة ذلك في روسيا الشيوعية لم يُكْتَب له البقاء الطويل. والماركسية كما مارسها ماركس نفسه لم تكن إيديولوجيا بقدر ما كانت عمليةً نقدية. وحجاجاً ديالكتيكياً

متواصلاً: أما لينين ومن بعده ستالين فقد حوّلاها إلى عقيدة جامدة. (كما فعل قبلهم، بالطبع، عددٌ من الاشتراكيين الاخرين. ففي أيار 1894، اشتكى إنجلز لفريدريش أدولف زورغه، المهاجر الألماني في نيويورك، قائلاً: "الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي هنا يشاطر اشتراكييكم الألمان الأميركيين ميزة أنهما الحزبان الوحيدان اللذان تدبّرا آمر اختـزال النظرية الماركسية في التطور إلى أرثوذكسية صارمة. وبات على هذه النظرية أن تُقْحَم في حلاقيم العمال دفعةً واحدةً ومن غير تطوير كأنها بنود إيمان، بدلاً من رَفْع العمال أنفسِهِم إلى مستواها انطلاقاً من غريزتهم الطبقية الخاصة. وهذا هو السبب في أنّ هذين الحزبين يبقيان مجرّد طائفتين، ويطلعان من لا شيء، كما يقول هيغل، عبر لا شيء إلى لا شيء"). بل إنّ بمقدور المرء أن يرى أنَّ أحقّ إنجاز ماركسي أنجزه الاتحاد السوفييتي كان انهياره: حيث أثبت الاقتصاد الأوامري المركزي الكتوم والبيروقراطي أنه لا ينسجم مع قوى الإنتاج الجديدة، ممّا عجّل بحصول تغيّر في علاقات الإنتاج. وقد اعترف ميخائيل غورباتشوف بذلك عام 1987 في كتابه **بيريسترويكا**:

> **النظام الإداري الذي اتّخذ شكله في الثلاثينيات والأربعينيات (من القرن العشرين) راح يتناقض شيئاً فشيئاً مع حاجات التقدم الاقتصادي وشروطه. فاستُنْفِدَت طاقته الإيجابية. وغدا عقبة على نحوٍ**

متزايد، وأدّى إلى نشوء آليةٍ كابحةٍ سبّبت لنا بعد ذلك كثيراً من الضرر...

هذه هي الظروف التي تطور فيها موقف متحيّز من دور العلاقات السلعية-النقدية وقانون القيمة في ظلّ الاشتراكية، وغالباً ما زُعِمَ أنّ ذلك مناقضٌ للاشتراكية وغريبٌ عنها. وقد تضافر كلٌّ ذلك مع التقليل من قيمة حساب الربح والخسارة، وأدّى إلى فوضى في التسعير، وإهمالٍ لتداول النقود... وظهرت علامات متزايدة باطّراد على اغتراب الإنسان عن ملكية الشعب بأكمله، وعلى غياب التنسيق بين المصلحة العامة ومصالح الشخص العامل الخاصة.

وكانت الصين، التي غدت "جمهوريةً للشعب" في العام 1949، أكبر بلد بعد روسيا، يعلن أنّه شيوعي. وفي حين ركّز ماركس ولينين على البروليتاريا المدينية، رأى ماوتسي تونغ أنّ فلاحيّ الريف يمكن أن يكونوا قوةً ثورية إذا ما سدّد خطاهم قادةٌ "مستقيمون" مثله هو نفسه. وإذ تحاشى ماو أنموذج التصنيع السريع السوفييتي، أعطى تطوير الريف وتنميته الأولوية العليا، وألهم بذلك كثيراً من الماركسيين في بلدان العالم الثالث الذي لم يكن فيه أيّ صناعةٍ جديدةٍ بهذا الاسم. لكن البرنامج الماويّ كان كارثةً بالنسبة للفلاحين الصينيين: وذلك أنّ **القفزة الكبرى إلى الأمام**، وهي خطّة

رَمَتْ إلى إضفاء الطابع الجماعيّ على الزراعة وتعزيز الصناعات الريفية ضيّقة النطاق، جرّت في أعقابها الجوع الجماعي وجرى التخلّي عنها بعد عامين من إطلاقها. وقد تزامن ذلك مع شقاق بين الصين والاتحاد السوفييتي، حيث سخر نيكيتا خروتشيف من **القفزة الكبرى** وردّ عليه ماو واصفاً إيّاه بـ "الأفّاق الرأسمالي". غير أنّه ما إنْ مات **قائد الدفّة العظيم** في العام 1976 حتى انطلقت الصين في الطريق الرأسمالي، وغدا اقتصادها الاقتصاد الصناعي الأسرع نمواً في العالم مع استمرارها في الإشارة إلى أنّ ما بلغته إلى الآن هو في الحقيقة "المرحلة الأوليّة من الاشتراكية". وعلى الرغم من تخلّي الحكومة في بكّين عن كلّ عظات ماو، إلاّ أنها تواصل تعريف ذاتها بأنها ماركسية-لينينية، مع أنّ "الماركتية-اللينينية" قد يكون التعريف الأنسب.

ومثل المسيحية بطوائفها المتنافسة التي لا حصر لها، ظهرت الماركسية في هيئات كثيرةٍ مختلفة على نحوٍ لافت بل ومتنافرة في الظاهر: البلاشفة والمناشفة، السبارتاكيون والتنقيحيون، الستالينيون والتروتسكيون، الماويون والكاستروويون، الشيوعيون الأوروبيون والوجوديون. وكان ماركس نفسه قد تنبّأ، برضوخٍ قاسٍ، أنَّ "ماركسيين" سوف ينطقون باسمه باطلاً بعد وفاته بزمن طويل وبعد أن يكون قد فقد الموقع الذي يمكّنه من الاحتجاج. وأشهر ما عبّر به عن يأسه إزاء المريدين الضالّين كان توبيخه أحد

الاشتراكيين الفرنسيين في سبعينيات القرن التاسع عشر: إذا ما كان أمثال هذا الاشتراكي ماركسيين، قال ماركس في حسرة، "كلُّ ما أعرفه هو أنني لستُ ماركسياً". ولعلّه لم يكن ماركسياً. بالفعل. فقد كشف تاريخ القرن العشرين أنَّ احتمال الثورة الماركسية كان أكبر في بلدان لا تتمتّع باقتصاد صناعيّ متقدّم، أو طبقةٍ رأسمالية، أو جيش ضخم من البروليتاريين الذين يكسبون قوتهم من خلال بيع قوة عملهم. ومن هنا تلك المفارقة التي لاحظها الباحث الماركسي ديفيد مكليلان عام 1983. حين كان ما يقارب نصف العالم لا يزال محكوماً من قِبَلِ أنظمة تدّعي أنّها وريثة ماركس:

> **ما تعنيه حقيقةُ أنَّ الماركسية لم تنتصر في الغرب هو أنَّها لم تتحوَّل إلى إيديولوجيا رسمية وأنَّها لذلك موضوع دراسة جدّية لا تحول دونها ضروب السيطرة الحكومية. فأوروبا الغربية وأميركا على وجه الدّقة - أي البلدان الرأسمالية - هي الأمكنة التي يُدْرَس فيها ماركس بأشدّ الحرص. ومن الإنصاف القول أنَّ في الغرب من الماركسيين الفعليين أكثر مما في عدد كبير من البلدان التي توصف بأنها "ماركسية".**

ففي الدول الشيوعية من ألبانيا إلى زيمبابوي. كانت الحكومات هي التي تضع التعريف المحلي للماركسية دون حاجةٍ

لمزيد من النقاش (بل بمنع هذا النقاش في حقيقة الأمر). أما في الغرب، فقد غدا معنى الماركسية موضع حجاج صاخب وإعادةِ تقويمٍ حاذقةٍ في آنٍ واحد. فأعمال ما يدعى ب **مدرسة فرانكفورت** في ثلاثينيات القرن العشرين - ومن أعلامها كلٌّ من ماكس هوركهايمر، وثيودور أدورنو، وهربرت ماركوزه - أدّت إلى ولادة فصيلة جديدة من الفلسفة الماركسية عُرِفَت باسم "النظرية النقدية"، ورفضت ما وجدته من حتميةٍ اقتصاديةٍ لدى لينين والبلاشفة. كما ساءلت **مدرسة فرانكفورت**، ومفكّرون آخرون من تلك المرحلة مثل أنطونيو غرامشي، المواقف الماركسية التقليدية المتعلّقة بالوعي الطبقي البروليتاري. فالرأسمالية، تبعاً لغرامشي، تحافظ على هيمنتها من خلال تضليل الطبقة العاملة أو إجبارها على قبول الثقافة البرجوازية على أنّها المعيار، الذي يمكّن لقيم وممارسات معينة بينما يُقْصي قيماً وممارسات أخرى. وعلى العمال، لكي يتحدّوا هذا الإجماع ويطيحوا بمزاعمه، أن يطوّروا ثقافةً "مهيمنةً مضادةً" خاصةً بهم عبر أنظمة التعليم الشعبي الجديدة.

ولذلك فقد ألحّ الماركسيون الغربيون أشدّ الإلحاح على الأهمية التي يحظى بها في العملية السياسية ما دعاه ماركس بالبنية الفوقية - الثقافة، والمؤسسات، واللغة- لدرجة أنّ النظر في الأساس الاقتصادي أو أخذه في الحسبان اختفى تماماً في بعض

الأحيان. ولأنّ هؤلاء لم يكونوا قادرين على تغيير العالم، فقد ركّزوا على تفسيره عبر ما صار يُعْرَف باسم "الدراسات الثقافية"، التي رسّخت هيمنتها في كثير من الجامعات في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وغيّرت في دراسة التاريخ، والجغرافيا، وعلم الاجتماع، والأنثربولوجيا، والأدب. بل إنَّ الليبيدو ذاته كان موضع تمحيص ماركسي. وحاول الطبيب النفساني فِلْهِلم رايش أن يوفّق بين ماركس وفرويد مشيراً إلى أنّ العمال لا يمكن أن يكونوا أحراراً حقاً ما لم يتحرّروا من الكبت الجنسيّ وطغيان البنى العائلية التقليدية (مع أنّ ماركس نفسه كان قد نبذ الحبّ الحرّ بوصفه أمراً "بهيمياً"، يكافئ "البغاء العموميّ"). وفي كتابه **الإنسان ذو البعد الواحد** (1964)، كتب هربرت ماركوزه، مرجع **اليسار الجديد**: "لقد اندمج الجنس بعلاقات العمل والعلاقات العامة وجُعِل بذلك أكثر عرضةً للإشباع (المضبوط). فالتقدم التقني والعيش الرغيد يتيحان احتواء المكوّنات الليبيدية ذلك الاحتواء المنهجي في مجال إنتاج السلع وتداولها".

هكذا باتت حدود المجال المشار إليه أوسع بكثير مما تخيّله ماركس في أيّ يوم من الأيام. وبات يضمّ أيّ ضربٍ من السلع الثقافية، فزوجٌ من الأحذية المدبّبة من الأمام، وصورة فوتوغرافية في صحيفة، وتسجيل لموسيقا البوب، وعلبة من الحبوب المُعَدَّة للفطور باتت جميعاً "نصوصاً" تمكن "قراءتها". وبالتدريج راحت

تحلّ محلّ نقد الثقافة الجماهيرية الذي اجترحه المنظّرون الأوائل الذين تأثّروا بـ **مدرسة فرانكفورت** دراسة السُّبُل المختلفة التي يستقبل بها البشر هذه النصوص اليومية ويفسّرونها. ومع اتخاذ الدراسات الثقافية تلك "الانعطافة اللسنية" التي اتخذتها -وطوّرتها من خلال البنيوية، وما بعد البنيوية، والتفكيك، وما بعد الحداثة- غالباً ما بدت هذه الدراسات على أنّها طريقة لتفادي السياسة كلياً، مع أنَّ كثيراً من أصحابها لا يزالون يطلقون على أنفسهم اسم الماركسيين. والمنطق الذي يقف خلف ما يبديه هؤلاء من إلحاح لعوب على أنّه ما من يقينيات أو وقائع هو منطقٌ أدّى في النهاية إلى نزعة نسبوية عائمة، وخالية من أحكام القيمة يمكن أن تحتفي بكلٍّ من ثقافة البوب والخرافات القروسطية دون تردّد أو ارتباك. وعلى الرغم من ازدراء السرديات التاريخية الكبرى وقوانين الطبيعة العامة، بدا أنَّ الكثيرين يتقبّلون ذلك النجاح الدائم الذي تحقّقه الرأسمالية بوصفه حقيقة حياتية ثابتة. أمّا دوافع هؤلاء الهدّامة فقد وجدت ملاذاً لها في الفضاءات الهامشية حيث تبدو هيمنة المنتصرين أقلّ أمناً: ومن هنا ذلك الحماس لما هو غرائبيّ وجسديّ، من نظريات المؤامرة المرتبطة بالأجسام الطائرة المجهولة إلى ضروب الفيتش السادومازوخية. وقد حلّ الافتتان بلذائذ الاستهلاك (المسلسلات التلفزيونية الخفيفة، ومتاجر التسوّق، وخلائط السوق الجماهيرية) محلّ التركيز التقليدي على شروط

الإنتاج المادي. وكانت عاقبة ذلك، تبعاً للناقد الماركسي تيري إيغلتون، "تضخّم لغويّ هائل، لأنّ ما بدا وكأنّه لم يَعُدْ قابلاً للتصوّر في الواقع السياسي كان لا يزال ممكناً في ميادين الخطاب أو العلامات أو النصيّة. فحريّة النصّ أو اللغة تعوّض عن غياب حرية النظام ككلّ". أمّا العدو الجديد، كما يقول إيغلتون، فقد أصبح "أنظمة الاعتقاد المتماسكة مهما يكن نوعها، خاصة أشكال النظرية والتنظيم السياسيين التي سعت إلى تحليل بنى المجتمع ككل والعمل عليها. فقد بدا أنّ مثل هذه السياسة على وجه الضبط هي التي أخفقت". ولم يعد من الممكن القيام بأيّ نقد منهجي للرأسمالية الاحتكارية لأنّ الرأسمالية ذاتها هي قصّة متخيّلة، شأنها شأن الحقيقة، والعدالة، والقانون وجميع "البناءات اللغوية" الأخرى.

وقد يتساءل المرء، إلى أين يصل هذا بكارل ماركس، الذي كابد ليقدّم مثل هذا النقد المنهجي على وجه التحديد؟ فقد بدا المنظّرون سعداء وهم يفكّكون الإعلانات التلفزيونية وأغلفة الحلويات ونافرين على نحوٍ لافت من أن يعملوا مباضعهم في نصّ **رأس المال**، ربما بسبب الخوف من ارتكاب ضَرْبٍ أدبيّ من قتل الأب. يقول المؤرّخ ما بعد الحداثي دومينيك لاكابرا إنّ **رأس المال** "ربما كان المثال الصارخ على نصٍّ مُعْتَمَد ومُكَرَّس يحتاج إلى إعادة قراءة وليس إلى قراءة حرفية، ومباشرة تتمسّك بصوت المؤلّف الموحّد والمحض".

ولعلّ قـراءة "رأس المال" (1965)، تلك المجـمـوعـة من المقـالات التي كتبهـا لوي ألتوسـر وبعض تلامذته، أن تكون إعـادة التقـويم الأبرز على هذا الصـعـيـد، وهـي تبـدأ بهـذا الكشف عن النيّـة أو القصد:

لقد قرأنا "رأس المال" جميعاً، ونقرأه. وعلى مدى قرن، كان بمقـدورنا أن نقـرأه كل يـوم، على نحـوٍ شـفـافٍ، في احـتـدامـات تـاريخنا وأحـلامـه، في نزاعـاتـه وصـراعـاتـه، في هزائـم وانتـصـارات حـركـة الـعـمـال التي هي أمـلنا الوحـيـد ومـصـيـرنا. مـنذ أن "جـئنا إلى الدنـيـا"، ونحـن نقرأ "رأس المال" في كتابات وخطب أولئك الذين قرأوه لنـا، على نحـوٍ حـسـن أو سـيّـئ، سـواء كـانوا أمـواتاً أم أحــيــاء، إنجلـز، كـاوتسكي، بليـخــانـوف، لـيـنين، روزا لوكـســمــبــورغ، تروتسكي، سـتــالين، غــرامـشـي، قــادة المنظّمات الـعـمـالـيـة، أنصارهم وخصـومـهـم: فلاسـفـة، واقـتـصـاديون، وسـيـاسـيون. وقـد قـرأنا أجـزاء منه، تلك "الشـذرات" الـتي "اخـتـارهـا" لنا الظرف. بل إننا قـرأنا جــمــيــعــاً، إلى هـذا الحــدّ أو ذاك، المجلّد الأول، من "السلع" إلى "نزع ملكية نازعي الملكية".

غـيـر أنّه من الأسـاسـي في يومٍ مـا أن نقـرأ "رأس المال" بالمعنى الحرفيّ. أن نقرأ النصّ ذاته...

وألتوسر، مثل أيّ قارئ آخر، يأتي إلى مهمّته الشاقّة وهو يضع نظّارة تُثْبِتُ وصْفَتَهُ الخاصة. فهو أول من ألحّ على أنَّ هنالك هوّة لا يمكن تجسيرها -"قطيعةً أبستمولوجيةً"- بين ماركس أريعينيات القرن التاسع عشر والرجل الذي كتب **رأس المال** بعد عشرين عاماً من ذلك. وبخلاف جان بول سارتر، الذي وجد في الكتابات الفلسفية الباكرة ذلك الإلهام الخصب الذي ألهمه صياغة الماركسية كتاريخٍ للانعتاق الذاتي الإنساني، فإنَّ ألتوسر استهجن اهتمام ماركس الشاب بالأخلاق، والاغتراب و"الفاعلية الإنسانية". فالتاريخ، عند ألتوسر، هو "سيرورة دون ذات" ولذلك فهو غير جدير بالدراسة أو التحليل: فالأفراد لا يمكنهم، حتى بصورة جمعية، أن يفرّوا قطّ أو يتحدّوا قوى **أجهزة الدولة الإيديولوجية** المجرّدة عما هو شخصيّ - التربية، الدين، العائلة - والتي تُنْتِج منظومة الاعتقاد السائدة وتحافظ عليها.

فألتوسر لا ينقذ ماركس من الحتمية الاقتصادية التي فرضها عليه لينين وخلفاؤه إلاّ لكي يقيّده في سترة مجانين ضيقة بالمثل. فهو في **قراءة "رأس المال"** يختزل رائعة ماركس إلى عمل علمي محض، لا تشوبه أيّ شائبة هيغليّة، وذلك على الرغم من إقرار المؤلّف عن طيب خاطر بما يدين به لهيغل، خاصةً في الفصل الأول حول السلع. وهكذا باتت الماركسية مجرد نظريةٍ في الممارسات البنيوية، منفصلةً عن السياسة، والتاريخ، والتجربة.

وتبعاً لمنطق ألتوسر اللا إنسانويّ فإنّ من غير الممكن أن نحمّل البشر مسؤولية أعمالهم، وهي الحجّة التي استغلّها هو ذاته بعد سنوات لكي يحلّ نفسَهُ من أيّ ذنبٍ إثْر قَتْلِهِ زوجته. كما أنّها الحجّة التي عملت، على النطاق الأوسع، على تبرئة **الحزب الشيوعي** (الذي كان ألتوسر عضواً قديماً فيه): فالقتل الجماعي في الاتحاد السوفييتي ليس جريمة، بل مجرّد خطأ نظري، أو "شكل جديد من "الوجود اللاعقلاني للعقل"، بحسب التعابير الرقيقة الشنيعة التي استخدمها ألتوسر لوصف الستالينية. ولقد سبق للمؤرّخ الماركسي إ. ب. تومسن أن قال في كتابه الجداليّ المفعم بالحيوية **بؤس النظرية** (1979): "يمكن أن نرى إلى ظهور الألتوسرية كتجلٍّ لفعلٍ بوليسي عام ضمن الإيديولوجيا، وكمحاولة لإعادة الستالينية على مستوى النظرية". وأضاف أنّ إلحاح ألتوسر على ماركسيةٍ مفاهيميةٍ تماماً، غير ملوّثةٍ بالتاريخ أو التجربة، يكشف عن أنّه رجلٌ "ليس لديه سوى معرفةٍ عابرةٍ بالممارسة التاريخية"، ذلك أنّ التجربة، في العالم الواقعي، تثبت مرّة بعد مرّة أنها "تدخل من غير استئذان وتعلن عن ميتاتٍ وأزماتٍ فعلية ومهمّة". ولقد كان ذلك أكثر صحّةً مما اعتقد تومسن نفسه. فقد أُميطَ اللثام عن كامل جهالة ألتوسر في مذكّراته التي نُشِرت بعد وفاته، **يدوم المستقبل إلى الأبد** (1994)، حيث يعترف بأنّه "محتال ومخادع" كان يخترع المقبوسات في بعض الأحيان لكي تلائم

غَرَضه. "في حقيقة الأمر، كانت معرفتي الفلسفية بالنصوص محدودة إلى حدٍّ بعيد. لم أكن... أعرف سوى القليل عن سبينوزا، ولم أكن أعرف شيئاً عن أرسطو. والصوفيين والرواقيين، وكنت أعرف الكثير عن أفلاطون وباسكال. ولا أعرف شيئاً عن كانط، ولا أعرف سوى أقلّ القليل عن هيغل. ولا أعرف أخيراً، سوى بضع مقاطع من ماركس".

فكيف استطاع، إذاً، أن يفلت بذلك؟ إنّ شرحه للحيلة السحرية التي كان يستخدمها هو ذلك الشرح الصريح على نحوٍ لافت:

> **كانت لديّ مقدرة خاصة أخرى. فحين أبدأ بتعبيرٍ بسيط، كنتُ أحسب أنني أستطيع أن أغيّر (ويا له من وهمٍ!)، إنْ لم يكن الأفكار الخاصة لمؤلِّفٍ أو كتابٍ لم أقرأه، فعلى الأقلّ معناه العام أو وجهته. كانت لديّ قدرات حدسية معينة واضحة فضلاً عن قدرةٍ بيّنةٍ على رؤية الصلات أو الروابط، أو قدرة على إنشاء تقابلات نظرية، تمكّنني من إعادة بناء ما أعتبره أفكار المؤلّف على أساس من مؤلِّفين يعارضهم. وكنت أواصل بصورةٍ عضوية من خلال إقامة ضروب من التعارض والفرق، لأعمل تالياً على إحكامِ نظريةٍ تدعم ذلك.**

وبفضل هذه القدرات الحدسية، فإنَّ ثمّة ومضاتٍ من التبصّر تضيء قراءة **"رأس المال"** مع أنَّ ألتوسر لم يدرس سوى بضع مقاطع

من ماركس. فهو يقترح أن نرى إلى **رأس المال** على أنّه "إجابة مهمة عن سؤال **لم يُطرَح في أي مكان**. إجابة لم يفلح ماركس في صياغتها إلا بشرط مضاعفة الصور اللازمة لتغييرها... فالعصر الذي عاش فيه ماركس لم يوفّر له، ولم يستطع هو أن يكتسب خلال حياته، ذلك المفهوم الكافي لأن يفكّر بواسطته بما أنتجه: **مفهوم الفعالية التي تمارسها بنيةٌ على عناصرها**".

وبعبارة أخرى، فقد نصب ماركس فخّاً متفجّراً موقوتاً، وانتظر أحداً ما أن يطرح السؤال الذي سبق له أن أجاب عنه. وهذا تؤكّده رسالة بعث بها إلى إنجلز ما إنْ أكمل المجلد الأول عام 1867، تنبّأ فيها باعتراضات "الاقتصاديين المبتذلين" على **رأس المال**: "لو رغبتُ في أن أدحض مسبقاً مثل هذه الاعتراضات جميعها، لكنتُ أفسدتُ منهج العرض الديالكتيكي برمّته. وبالمقابل، فإنّ الشيء الحسن في هذا المنهج هو انّه ينصّب الأفخاخ لدى كلّ خطوة يخطوها هؤلاء الأشخاص مما يضطرهم إلى إظهار غباوتهم في غير أوانها". مرّة أخرى، لا يسع المرء إلاّ أن يتذكّر تلك اللسعة الساخرة في **التحفة المجهولة** لبلزاك: فنقطة الضعف الوحيدة في رائعة الرسام الملطّخة، التي لاشكل لها، والتي تبدو كارثيةً هي أنّه أنجزها للتوّ لمئة سنة قادمة. ذلك أنها في واقع الأمر قطعة من الفن التجريدي الذي عرفه القرن العشرين. وكما كتب إدموند ولسون، فإنّ ماركس، بانتصاره للطبقات المحرومة ومحاصرته

حصن الرضا البرجوازي عن الذات، كان يجلب إلى الاقتصاد وجهة نظرٍ "كانت قيمتها في زمنه متناسبة تماماً مع غربتها عن ذلك الزمن".

غير أنّ الاقتصاديين المبتذلين لم يبدوا، على مدى نصف قرنٍ من صدور رأس المال سوى اهتمام ضئيل بدحض ماركس والردّ عليه، مفضّلين تجاهله. فقد نظروا إلى النظام الرأسمالي على أنّه ضرورة دائمة، لا مجرّد طور تاريخي عابر ينطوي في داخله على بذور اعتلاله النهائي. وفي حين تعامل ماركس مع الفائدة والربح والريع باعتبارها عملاً غير مدفوع الأجر، وصف الاقتصاديون الأكاديميون الفائدة التي يجنيها مالكو رأس المال بأنها "مكافأة التقشّف". فأولئك الذين يراكمون رأس المال بدلاً من إنفاقه وتبديده إنما يقومون، من وجهة نظر ألفرد مارشال، الشخصية البارزة في علم الاقتصاد البريطاني في أواخر العهد الفيكتوري وأوائل عهد إدوارد، ب "تضحية الانتظار"، ويستحقون لذلك تعويضاً عن إحجامهم الفاضل.

ورأى الاقتصاديون الأرثوذكس أنّ لا مجال لحدوث فرط الإنتاج، الذي اعتبره ماركس سمة أساسية من سمات الرأسمالية. ذلك أنَّ العرض، تبعاً لقانون الأسواق الذي وضعه ساي، يخلق طلبه الخاص: فالمكاسب الناجمة عن إنتاج سلع معينةٍ وبيعها يوفّر القوة اللازمة لشراء أخرى. وهذه الآلية التي تتّسم بالتصويب الذاتي هي

التي تضمن أيضاً ألاّ تتعدّى البطالة قطّ كونها مجرّد شائبة وجيزة وعارضة. فالعاطلون يبدون استعداداً للعمل بأجور منخفضة: وانخفاض الأجور الناجم عن ذلك يخفّض أسعار السلع التي ينتجونها، الأمر الذي يعمل بدوره على زيادة الطلب على البضائع وزيادة مبيعاتها، مما يمكّن من العودة إلى العمالة الكاملة.

بيد أنّ الاضطراب الاقتصادي والبطالة الثقيلة بين الحربين العالميتين كانا كفيلين بأن يدفعا إلى إعادة النظر، وإلى اعتراف متأخّر بأنّ الرأسمالية قد تكون منطوية في حقيقة الأمر على ضروب من الخلل منهجية. بل إنّ بعض الاقتصاديين راحوا يتساءلون ما إذا كانت الرأسمالية أبدية وثابتة حقّاً. ففي دراسته التي تعود إلى عام 1939، **القيمة ورأس المال**، شكّك البروفسور جون هيكس في أن "يكون بمقدور المرء أن يعوّل على البقاء المديد لأيّ شيء مثل النظام الرأسمالي" بغياب اختراعات جديدة قوية بما يكفي لأن تحافظ على الاستثمار. وأضاف أيضاً أنه "ليس بمقدور المرء أن يكبت الفكرة التي مفادها أنّ الثورة الصناعية بأكملها خلال القرنين الماضيين ربما لم تكن أكثر من رواجٍ أو انتعاش دنيوي هائل". أمّا ج. م. كينز، الذي وُلِدَ في سنة وفاة ماركس، فقد كتب في **نظرية عامة في العمالة والفائدة والنقود** (1936): "إنني أنظر إلى الجانب المتعلق بصاحب الإيراد من جوانب الرأسمالية على أنّه طور انتقالي سوف يختفي عندما ينجز عمله".

وكينز، الاقتصادي الأشدّ نفوذاً في القرن العشرين، كان قد تحدّى التصوّر الذي مفاده أن رأسمالية **دعه يعمل** تتّسم بميلٍ طبيعي إلى التوازن الذاتي. فالفكرة التي ترى أنّ البطالة تخفّض الأجور وبذلك تستعيد العمالة الكاملة هي فكرة قد تصحّ على الشركات أو المصانع الفردية. أمّا إذا انخفضت جميع الأجور، فإنَّ جميع المداخيل سوف تنخفض وسوف يركد الطلب. فلا يعود لدى أرباب العمل ذلك الحافز إلى استئجار مزيدٍ من العمل. وكما تقول الاقتصادية الكينزية جوان روبنسون: "في حَشْدٍ، يمكن لأيّ أحد أن يرى ما يجري بصورة أفضل إذا ما وقف على كرسي. أمّا إذا وقف الجميع على كراسي فلن يكون بمقدور أحد أن يرى بصورة أفضل".

قبل كينز، كان معظم الاقتصاديين قد تعاملوا مع أزمات الرأسمالية العابرة على أنها انحرافات يمكن تجاهلها. أمّا هو فقد نظر إليها على أنها الإيقاع الذي لا مفرّ منه لنظام مزعزع، شأنه في ذلك شأن ماركس. غير أنّ كينز نبذ ماركس معتبراً إيّاه شخصاً غريباً "من عالم الفكر الاقتصادي السفلي". ونظرياته "بعيدة عن المنطق، بَطُلَ استعمالها، خاطئة علمياً، وبلا أهمية أو إمكانية للتطبيق في العالم الحديث". والحال، أنّ عنف هذه الإدانة يبعث على الدهشة، نظراً للتشابه بين نقد ماركس للاقتصاديين الكلاسيكيين وانتقاد كينز لخلفائهم الكلاسيكيين الجدد. وكما قالت جوان روبنسون عام 1948:

لدى كليهما. تلعب البطالة دوراً أساسياً. وكلاهما ينظران إلى الرأسمالية على أنها تحمل في داخلها بذور فسادها. ونظاما كينز وماركس يقفان معاً، في جانبهما السلبيّ، ضدّ نظرية التوازن الأرثوذكسية، وثمة الآن، لأوّل مرّة، تلك القاعدة المشتركة التي تكفي لأن تجعل النقاش ممكناً بين الماركسيين والاقتصاديين الأكاديميين. وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نجد بين الاقتصاديين الأكاديميين الإنجليز إلاّ أقلّ قَدْرٍ من دراسة ماركس تلك الدراسة الجديّة.

لا شكّ أنّ بعض هؤلاء قد أحجموا عن هذه الدراسة بسبب كثافة أسلوبه. وعلى الرغم من إشادة روبنسون نفسها بضروب الألفة الوثيقة بين كينز ونظرية ماركس في الأزمات في المجلد الثاني من **رأس المال**. إلا أنها اعترفت بما ارتكبته من "مبالغةٍ في الإلحاح على التشابه. فالمجلدان الأخيران من **رأس المال**... مفرطان في غموضهما وقد خضعا لتأويلاتٍ كثيرة. فالمياه مظلمة ولعلّ كلّ من يحدّق فيها لن يرى سوى وجهه وحسب".

غير أنّ السبب الأساسي الذي يقف خلف تجاهل الصلة بين ماركس وكينز - بل خلف تجاهل ماركس برمّته - ربما كان سبباً سياسياً. فكينز نفسه كان ليبرالياً وليس اشتراكياً، وكان يعلن مفتخراً أنّ "الحرب الطبقية سوف تجدني في صفّ البرجوازية

المثقفة"، وقد غدت الكينزية أرثوذكسية جديدة بالنسبة للاقتصاديين والسياسيين الغربيين في أواسط القرن العشرين؛ أي على وجه الدقّة في الوقت الذي جعلت **الحرب الباردة** من اسم ماركس مرادفاً للعدو. ولذلك فإنّ قلّة وحسب من غير الماركسيين هي التي أرادت أن تتلطّخ بذلك الربط (بين ماركس وكينز).

ويُعَدُّ الاقتصادي المولود في النمسا، جوزيف شومبيتر، أكبر استثناء لتلك القاعدة. ومع أنّه لم يسبق أن كان للرأسمالية نصير يفوق في حماسه شومبيتر، الذي لا يزال بطلاً في نظرِ كثيرٍ من أصحاب المشاريع الأميركيين، إلا أنّ عمله الشهير **الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية** (1942) يبدأ بأربع وخمسين صفحة من تقويم منجزات ماركس ذلك التقويم السخيّ على نحوٍ غير متوقّع شأنه شأن إشادة ماركس بالبرجوازية في **البيان الشيوعي**. فهو يقرّ بأنَّ ماركس، كنبيّ، قد عانى من "رؤية خاطئة وتحليلٍ مختلّ"، خاصةً في تنبؤه ببؤس العمال المتزايد. غير أن ماركس "رأى سيرورة التغيّر الصناعي بوضوح وأدرك كامل أهميتها المحورية أكثر من أي اقتصادي آخر في زمنه". وغدا بذلك "أول اقتصادي من اقتصاديي الصف الأول يرى ويعلّم على نحوٍ منهجيّ كيف يمكن للنظرية الاقتصادية أن تتحول إلى تحليل تاريخي وكيف يمكن للسرد التاريخي أن يتحول إلى تفكير تاريخي". وما هي إلا بضع صفحات حتى يطرح شومبيتر السؤال: "هل يمكن للرأسمالية أن

تبقى؟" ويجيب: "لا. لا أحسب أنها تستطيع". وقد يبدو ذلك غريباً في كتاب أُريدَ له أن يكون دفاعاً متيناً عن روحية أصحاب المشاريع، ومن المؤكّد أنّ شومبيتر - بخلاف ماركس - لم يكن يسرّه مثل هذا الاستنتاج. ("حين يتنبأ الطبيب بأن مريضه سوف يقضي نحبه سريعاً، فإن ذلك لا يعني أنه يرغب في ذلك"). وكان يرى أن الابتكار الرأسمالي - لمنتجات جديدة، وطرائق جديدة في إنتاجها - هو قوة "دمار خلاّق" قد تغدو في النهاية بالغة النجاح، وتالياً بالغة التدمير، بحدّ ذاتها.

وفي العقد الأخير من القرن العشرين، بدت تحذيرات العرافين التي أطلقها كلٌّ من شومبيتر وماركس كأنها قد أُطيحَ بها. فبينما كانت الشيوعية تعاني سكرات الموت، بات بمقدور الرأسمالية الليبرالية أميركية الطراز أن تفرض سيطرتها دون منازع، ربما إلى الأبد. ففي العام 1989، أعلن فرانسيس فوكوياما أنَّ "ما نشهده ليس مجرّد نهاية **الحرب الباردة**، أو انقضاء مرحلة محددة من تاريخ ما بعد الحرب، بل نهاية التاريخ ذاته: أي النقطة النهائية من تطوّر البشر الإيديولوجيّ". غير أنَّ التاريخ لم يلبث أن ردّ منتقماً. ففي آب 1998، كان لانحلال الاقتصادي في روسيا، وانهيارات العملة في آسيا، وهلع السوق في أرجاء العالم أن تدفع **الفايننشال تايمز** لأن تتساءل ما إذا كنا قد انتقلنا "من انتصار الرأسمالية العالمية إلى أزمتها خلال عقد وحسب". وكان عنوان تلك المقالة "عودة إلى رأس المال".

وحتى أولئك الذين كسبوا الكثير من النظام راحوا يشككون في قابليته للحياة. ففي كتابه أزمة الرأسمالية العالمية: **مجتمع مفتوح مُعَرَّض للخطر** (1998) نبّه جورج سوروس، المضارب البليونير الذي أُنْحِيَ عليه باللائمة بسبب النكبات الآسيوية والروسية، إلى ضرورة السيطرة على غريزة القطيع لدى مالكي رأس المال قبل أن يطأوا بأقدامهم كلّ أحد آخر:

> **لا يبدي النظام الرأسمالي بحد ذاته أيَ ميل إلى التوازن. فمالكو رأس المال يسعون إلى تعظيم أرباحهم إلى أقصى حدّ. وإذا ما تركوا وشأنهم، فسوف يواصلون مراكمة رأس المال إلى أن يغدو الوضع غير متوازن. وقد قدّم ماركس وإنجلز قبل 150 عاماً تحليلاً جيداً جداً للنظام الرأسمالي، وهو تحليل ينبغي القول إنه أفضل من بعض النواحي من نظرية التوازن التي قدّمها الاقتصاد الكلاسيكي... والسبب الأساسي الذي حال دون تحقق نبوءاتهما هو ضروب التدخّل السياسي المضاد في البلدان الديمقراطية. والمؤسف أننا نواجه مرةً أخرى خطر التوصّل إلى استنتاجات خاطئة من دروس التاريخ. لكن الخطر لا يأتي هذه المرة من الشيوعية بل من أصولية السوق.**

خلال **الحرب الباردة**، حين كانت الدول الشيوعية تبجّل أعمال ماركس كأنها كتاب مقدّس - كامل ومعصوم - كان أولئك الذين يقفون في الصفّ الآخر يشتمونه كأنّه وكيل الشيطان. غير أنه، مع انهيار جدار برلين، راح يكسب معجبين جدداً في الأماكن الأبعد عن الاحتمال. ففي العام 1994، كتب الاقتصادي اليميني جود وانيسكي: "لا ينبغي أن نسارع إلى تهنئة أنفسنا على هزيمة ماركس، إلى جانب الماركسية. صحيح أنَّ مجتمعنا العالمي أكثر سلاسة بكثير مما كان عليه في أيامه، لكن سيرورة التجديد ليست مضمونة. وقوى الرجعة التي حدّدها على نحوٍ صائب ينبغي أن يتغلّب عليها كلّ جيلٍ لاحق، وهذه هي المهمة الضخمة التي تواجه جيلنا الآن". وكان وانيسكي، الذي سكّ عبارة "اقتصاد العرض"، قد استشهد بـ **رأس المال** بوصفه مصدر الإلهام الأساسي لنظريته في أنَّ الإنتاج وليس الطلب هو مفتاح الازدهار. فماركس، بوصفه نصيراً للتجارة الحرّة ومعيار الذهب، وعدواً للبيروقراطية، ومعجباً بروح الاندفاع وراء الذهب، هو "واحد من عمالقة النظرية والممارسة الكلاسيكيتين"، فضلاً عن كونه عرّافاً عبقرياً. فقد "اقترب من الحقيقة أشدّ الاقتراب" في إشارته إلى أنَّ الرأسمالية قد بَذّرت بذور دمارها: "أي أنه إذا ما كانت الرأسمالية تقتضي التنافس، فإننا إزاء نظام غير قادر على البقاء أصلاً، شأنه شأن البهائم التي تلتهم صغارها".

وفي تشرين الأول من العام 1997 أجرى المراسل الاقتصادي في **النيويوركر**، جون كاسيدي، حديثاً مع مصرفيّ ومستثمر بريطاني يعمل في نيويورك، وقال هذا المصرفي: "كلما طال بي الوقت في وول ستريت، كنت أزداد اقتناعاً بأنّ ماركس على حقّ. ولقد مُنِحَت جائزة نوبل لاقتصادي بعث ماركس حيّاً وصاغه في نظريةٍ متماسكة، ولديّ قناعة مطلقة بأنَّ مقاربة ماركس هي الطريقة الأفضل في النظر إلى الرأسمالية". ولأنّ هذا أثار فضول كاسيدي، راح يقرأ ماركس لأول مرة وخلص إلى أنَّ صاحبه كان على حقّ. فقد وجد "مقاطع لافتة عن العولمة، وانعدام المساواة، والفساد السياسي، والاحتكار، والتقدّم التقني، وانحلال الثقافة الرفيعة، وطبيعة الوجود الحديث التي تبعث على الكسل والخمول، وهي قضايا راح الاقتصاديون يواجهونها مجدداً، دون أن يدركوا في بعض الأحيان أنهم يسيرون في أعقاب ماركس". وأشار كاسيدي، مستشهداً بالشعار الشهير الذي سكّه جيمس كارفيل لحملة بيل كلينتون الرئاسية عام 1992 ("إنه الاقتصاد، يا غبيّ")، إلى أنَّ "المصطلح الذي أطلقه ماركس على هذه النظرية هو "التصوّر المادّيّ للتاريخ"، وهو يحظى الآن بقبولٍ واسع جداً ويستخدمه المحللون من كلّ الأطياف الساسية، مثل كارفيل، دون أيّ إشارة إلى صاحبه. فحين يرى المحافظون أنّ دولة الرفاهية قد لقيت حتفها لأنّها تخنق المشروع الخاص، أو أن الاتحاد السوفيتي انهار لأنه لم يستطع أن

يضاهي كفاءة الرأسمالية الغربية، فإنهم يتبنون وجهة نظر ماركس في أنَّ الاقتصاد هو القوة التي تدفع التطور الإنساني".

ومثل برجوازيّ موليير النبيل، الذي اكتشف مذهولاً أنه كان يتكلم النثر منذ أكثر من أربعين عاماً دون أن يعلم، فإنَّ كثيراً من البرجوازيين الغربيين قد تشرّبوا أفكار ماركس دون أن يلحظوا ذلك قطّ. وكانت قراءةٌ متأخّرة لأعمال ماركس في تسعينيات القرن العشرين قد ألهمت الصحفي الماليّ جيمس بوكان وَضْعَ دراسته اللامعة، **رغبةٌ مجمّدة: بحث في معنى النقود** (1997). يقول بوكان:

> **إنَّ ماركس راسخٌ في قالب تفكيرنا الغربيَ لدرجة أنَّ قلّة وحسب هم الذين يعلمون مقدار دَيْنهم إليه. فكلُ من أعرفهم الآن يعتقدون أنَّ مواقفهم هي إلى حدٍّ ما نتاج ظروفهم المادية - "أنَّ وجودهم الاجتماعي، على العكس، هو الذي يحدد وعيهم"، كما قال ماركس- وأنَّ التغيير الذي يعتري طرائق إنتاج الأشياء يترك تأثيره العميق على شؤون البشر حتى خارج الورشة أو المصنع.**
>
> **ولقد جاءتنا هذه التصورات من ماركس أكثر بكثير مما جاءتنا من الاقتصاد السياسي. وبالمثل، فإنَ لدى**

كلّ من أعرفهم شعوراً بأنَّ التاريخ ليس مجرّد شيء لعين واحد يتلو شيئاً آخر... بل ضَرْبٌ من السيرورة يتحقق فيها على نحوٍ تقدميّ شيء إنساني ما: الحرية؟ السعادة؟ الطاقة الإنسانية؟ لكنه شيء جميلٌ، على أيّ حال. ومع أنَّ ماركس لم يولّد هذا الشعور، إلا أنه روّجه وجعله شائعاً.

حتى الصحفيان في **الإيكونوميست** جون مايكلثوايت وأدريان وولدريدج، المشجعّان المتلهّفان للرأسمالية النفّاثة، يعترفان بما يدينان به لماركس. فقد كتبا في كتابهما **مستقبلٌ تام: تحدي العولمة ووعدها المُضْمَر** (2000): "لعلّ ماركس قد آل إلى نهايته كنبيٍّ للاشتراكية، غير أنَّ بمقدوره. كنبيّ "لاعتماد الأمم المتبادل الكوني" كما أطلق على العولمة، أن يواصل ما يبدو عليه من أهميةٍ مذهلة... فوصفه للعولمة يبقى ثاقباً اليوم كما كان منذ 150 عاماً مضت". وما يخشاه هذان الصحفيان أشدّ الخشية هو أنّ العولمة "كلما زاد نجاحها بدت وكأنها تستثير مزيداً من الاستثارة ما تنطوي عليه من ردّة فعل". وما يخشيانه، بعبارة أخرى، هو أن يكون ماركس محقّاً في إشارته إلى أنَّ "تطوّر الصناعة الحديثة... يسحب من تحت أقدام البرجوازية ذلك الأساس ذاته الذي يقوم عليه إنتاج البرجوازية للمنتجات وتملّكها إياها. ولذلك فإنَّ ما تنتجه البرجوازية، قبل كلّ شيء، هم حفّارو قبرها". فعلى الرغم من كلّ

ما يبديانه من الإحساس بالظفر والانتصار. يبقى لدى وولدريدج ومايكلثوايت شبهة مقلقة بأنّ الدمار الخلاّق الذي أحدثته الرأسمالية العالمية "قد يكون له حدّه الطبيعي الذي يتوقف عنده، ولحظته التي لا يعود بمقدور البشر عندها أن يأخذوا المزيد".

لم يحصل سقوط البرجوازية وانتصار البروليتاريا. غير أن أخطاء ماركس ونبوءاته التي لم تتحقّق بشأن الرأسمالية تطغى عليها وتتخطّاها تلك الدّقة الثاقبة التي كشف بها عن طبيعة الوحش. وبينما لا يزال كلُّ ما هو صلب يتحلل متحولاً إلى أثير، فإنَّ الصورة المفعمة بالحيوية التي رسمها **رأس المال** لتلك القوى التي تتحكّم بحياتنا – وما تنتجه من زعزعةٍ، واغترابٍ، واستغلال – لن تفقد قطّ أثرها، أو قدرتها على جعل العالم بؤرة الاهتمام. وكما ختم ذلك المقال الذي نشرته **النيويوركر** عام 1997، فإنَّ "كتب ماركس سوف تظلّ جديرة بالقراءة ما دامت الرأسمالية باقية". وبعيداً عن أن يُدفَن تحت أنقاض جدار برلين، لعلّ ماركس لم يبرز إلا الآن بأهميته الحقّة. ولعلّه يغدو المفكّر الأشدّ نفوذاً في القرن الواحد والعشرين.

* *



قصة الكتاب الذي جلب (لكارل ماركس) الشهرة وألهم الثورات في أرجاء العالم، بقلم الكاتب الذي وضع سيرةً لـ (ماركس) بيع منها أكثر من 100000 نسخة.

"كتاب يبعث على البهجة... ويصوّب أولئك الذين نشؤوا على الاعتقاد بأنَّ عمل (ماركس) جامد ومتزمت عقائدياً... ما يقدّمه (وين) هو صورة للرجل نابضة بالحياة". الصنداي تلغراف، المملكة المتحدة.

"لقد اكتفى الفلاسفة بتفسير العالم، بشتّى الطرق؛ والمهم هو تغييره"، هكذا كتب (ماركس) في العام 1845؛ ومن هنا كان كشفه الملتهب لذلك العالم الرأسمالي الجديد الذي عرفته (الحقبة الفيكتورية) في كتابه (رأس المال) الذي أثّرت أفكاره على ملايين البشر وغيّرت مجرى التاريخ العالمي.

يرسم (وين) لوحة (ديكنزية) للكفاح الذي خاضه (ماركس) على مدى عشرين عاماً بغية إتمام رائعته. وقد كان لـ (رأس المال)، الذي حُمِلَ به في شقّة من غرفتين في لندن وسط الشجارات السياسية والمآسي الشخصية، أن يترك أثره على عدد لا يُحْصَى من المفكّرين والكتّاب والثوريين. وما دامت الرأسمالية باقيةً بمنغّصاتها ستبقى الحاجة قائمة إلى قراءة هذا العمل الأساسي وفهمه.



ORD:000247-1

موضوع الكتاب: ١- الماركسية - نظريات



موقعنا على الإنت
ht ookshop.com